دلالة التوحيد

في قصة

عيس عليه السلام

أ.د / أحمد عبد الله الطيار

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

تمهيد ومدخل:

مظاهر وحدانية الله – سبحانه – ترى أمام الأعين آناء الليل وأطراف النهار والوجود كله شاهد صدق على هذه الحقيقة .. ولا يمارى فى هذا إلا إنسان أظلمت نفسه وقسا قلبه فلا ينفذ إليه حق ولا يزعن له ..

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

والقرآن الكريم فى عرضه لقصة عيسى – عليه السلام – يوضح هذه الحقيقة حيث يبين أن خَلْقَه – أى عيسى – عليه السلام – فريد ، فقد جاء عن طريق نفخ الروح فى أمه الطاهرة العفيفة المتبتلة .

قال الله تعالى « ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين»(١)

وهذا على غير عادة الناس فى التوالد الطبيعى ، والتناسل البشرى ، ومن هنا فإن نبى الله – عيسى عليه السلام – ليس له أب من البشر ، وهذا أمر خارق للعادة .

وقد جعله الله تعالى هو وأمه آية .

قال الله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآوينهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» (٢) ودلائل التوحيد فى قصة هذا النبى الكريم كثيرة ..

فمنذ أن حملت به أمه الطاهرة وحتى رفعه الله سبحانه تتوالى الدلائل

---

(١) الآية ١٢ سورة التحريم .

(٢) الآية ٥٠ سورة المؤمنون

وتظهر الخوارق التى تأخذ باللب .

وهذه الدلائل سنتحدث عنها من خلال عرض القرآن الكريم لحياة المسيح - عليه السلام -

قال الله تعالى «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر إلى يؤفكون»(١)

نسب عيسى عليه السلام :

ذكر القرآن الكريم نسب نبى الله عيسى - عليه السلام - بأنه المسيح عيسى بن مريم وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل .. اسمه "عيسى" ولقبه "المسيح" ويكنى «ابن مريم» نسبة إلى أمه مريم ابنة عمران لأنه علية السلام ولد من غير أب .

وهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة وروح منه وهذا النسب الزكى ذكره الحق سبحانه فى قوله «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »(٢)

وهذا الاسم أوحى الله به لأمه مريم قبل أن يولد - عليه السلام - وهذه التسمية جاءت فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .

وجاءت هذه التسميةأيضا - بالكنية - فى حديث رسول الله - صلى الله

(١) الآية ٧٥ سورة المائدة

(٢) الآية ٤٥ سورة آل عمران

عليه وسلم - فى صحيح البخارى عن ابن عباس سمع عمر رضى الله عنه يقول على المنبر : سمعت رسول الله صلى لاله عليه وسلم - يقول « لا تُطْروني كما أَطْرَتْ النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله» (١)

وعلى هذا فما ذكره القرآن العظيم وأخبر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو النسب الحقيقى لنبى الله عيسى - عليه السلام .

على عكس الأناجيل التى ذكرت أنسابا كثيرة مختلفة وليس نسبا واحدا .

فعلى سبيل المثال نجد فى إنجيل لوقا .

«هو يسوع بن يوسف النجار بن هالى بن لاوى بن ملكى .. إلى أن ينتهى النسب إلى يهوذا ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام .

وفى إنجيل متى :

هو يسوع بن يوسف النجار بن يعقوب بن متان .... إلى أن ينتهى إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام .

فإنجيل لوقا يقول : إن يوسف بن هالى .

وإنجيل متى يقول : إن يوسف بن يعقوب .

وإنجيل لوقا يقول : إنه من أولاد ناثان بن داود .

وإنجيل متى يقول : إنه من أولاد سليمان بن داود .

وإنجيل لوقا يقول : إن آباء المسيح غير سلاطين وغير مشهورين .

(١) البخارى ٢ / ١٢٥ .

وإنجيل متى يقول : إن آباء المسيح سلاطين مشهورون .

وفى إنجيل لوقا أن بين داود والمسيح واحد وأربعين جيلا .

وفى إنجيل متى إن بين داود والمسيح ستة عشر جيلا . (١)

وأمام هذا الاختلاف الشديد بين الأناجيل فى نسب المسيح يقف الإنسان حائرا .. فلا يدرى كيف يوفق بين هذا التناقض العجيب فى كتاب يُسميه أصحابه مقدسا ويؤمنون به .

ولا ندرى من أين اكتسبت هذه القداسة .. وهذا التناقض الواضح من أوضح الدلائل وأصدق البراهين على أن هذا كله تحريف ولا أساس له .

ولا أدل على ذلك مما جاء فى كتبهم .

فى الفقرة السابعة عشر من الإصحاح الأول من إنجيل متى ما نصه :

«فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلا ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلا ، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلا»

فنسب المسيح من خلال هذا النص يشتمل على ثلاثة مراحل كل منها مشتمل على أربعة عشر جيلا وهذا غلط صريح .

لقد وقع التحريف بكل صوره – التبديل والزيادة والنقصان – فى هذه الكتب. (٢)

---

(١) النبوة والأنبياء ، محمد على الصابونى ص ١٨٧ ، ١٨٨

(٢) يراجع هذا بالتفصيل فى كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندى من ص ١٠٦ – ٢١٢

ومن ثم فإن ما تثبته عن المسيح عليه السلام كله محض افتراء وبهتان وصدق الله العظيم « من الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون. يا أهل الكتاب قد جائكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جائكم من الله نور وكتاب مبين» (١)

ولا أريد أن استقصى هذه الأكاذيب .. ولكن حسبى أن ألج فيما قصدت من بيان دلائل التوحيد فى قصة عبد الله ورسوله وكلمته سيدنا عيسى – عليه السلام –

مهتديا فى ذلك بنور القرآن الهادى الذى لا يخبو أبدا فهو الحق الذى لا مرية فيه «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»

مريم الطاهرة ومعجزة الميلاد

السيدة الطاهرة من نسل داود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل في زمانه ، وكانت أمها من العابدات ، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم .. وقيل زوج خالتها .

وكانت أم مريم – كما يذكر ابن اسحاق وغيره – لا تحمل .. فنذرت إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أى حبيسا فى بيت المقدس .. فحملت بمريم عليها السلام « فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم

(١) الآيتان ١٤ ، ١٥ سورة المائدة

بما وضعت وليس الذكر كالأنثى »[١]

أى فى خدمة بيت المقدس ، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم .

وقولها كما ذكر القرآن الكريم « وإنى سميتها مريم .....

وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»[٢] قد استجيب لها فى هذا كما تُقبل منها نذرها .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن البنى – صلى الله عليه وسلم – قال " ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يُولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم «وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»

وعن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال «كل مولود من بنى آدم يمسه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى»[٣] ونقف أمام هذا الحديث المعجز من ناحيتين .

الأولى : تمنى أم مريم الولد بعد طول اليأس فقد كانت لا تحمل ويتحقق لها ما تحب – وهذا أمر خارق للعادة .

الثانية : استجابة دعائها « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» .

---

(١) الايه ٣٦ سورة آل عمران

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ٢ / ٦٤٥ ، ٦٤٦

(٣) المسند للإمام أحمد ٢ / ٢٨٨

ولكن قالوا : معنى المعاد عود كل شيء إلى أصله ، وزعموا أن نفوس المعاندين لمذهب الاسماعيلية ، تبقى أبد الدهر في النار ، على معنى انها تبقى في العالم الجسماني تتناسخها الأبدان ، فلا تزال تتعرض فيه إلى الآلام والأسقام ، فلا تفارق جسداً إلا ويتلقاها آخر " (١).

ومن هذا النص يتضح أن الاسماعيلية تقول بالتناسخ ، وتنكر البعث والجنة والنار بمعنى أن الروح بعد موت الجسد التي كانت فيه تنتقل إلى جسد آخر ، وهذا الجسد الجديد يكون حسب السابق من حيث النعيم أو الجحيم .

ونظرية الدور – التي ذكرت فيما سبق تبين بكل وضوح عقيدة الاسماعيلية في التناسخ ، فالاسماعيلية تؤمن بوجود دورات متعاقبة لهذا العالم ، في كل دور نبي ناطق ووصي وأئمة ستة ، فإذا جاء السابع ، افتتح دورا جديدا ، وصار نبيا ، وعلى هذا الاساس آمنوا أن الانبياء والائمة خلقوا من نور العقل الكلي (خالق هذا العالم على حد زعمهم) ، وأن هذا النور يتسلل بالانبياء والائمة في كل الادوار ، حتى انهم اعتبروا ان آدم هو نوح ، ونوح هو موسى ، وعيسى هو محمدﷺ وهكذا . (٢).

ومن هنا نستنتج أن هذا المعتقد يقوم على التناسخ ، فقد جعلت الانبياء شخصا واحدا ، وكذلك الائمة يظهرون في كل دور بنفس ظهورهم في الدور الذي سبقه ، أي بمعنى اخر تنفى أجسامهم وتبقى أرواحهم تتعاقب على أجسام أخرى ، وهذا بعينه مذهب التناسخ .

وأرواح المؤمنين عند الاسماعيلية عندما تموت وتمتزج بالهيكل النوراني تعود بعدها إلى الارض بأجسام اخرى ، وتدخل الدعوة من جديد إلى أن تصل إلى مرتبتها فيها قبل موتها .

---

١ – الغزالي ، فضائح الباطنية ص ٤٤ – ٤٦ .

٢ – د . الخطيب الحركات الباطنية ، ١١٢ .

أما أرواح المعاندين ، فتدخل فى أدوار متكررة من العذاب تتقمص فى كل دور سبعين قميصا ، فقد تأتى بصورة البشر الذين لا يصلحون للمخاطبة .أو تأتى بصورة الحيوانات ، أو بصورة النبات ، أو تظهر الروح فى داخل المعدن والحجر(١)

وأولته الإسماعيلية القيامة ، على أن قيام النفوس الجزئية المفارقة للمدركات الحسية ولآلات الجسدانية ، بظهور صاحب الزمان (٢)

وجنة النعيم هى عالم العلم ودرجاتها هى مراتب العلوم ، وأما اللذات فهى جولات النفوس فى قضاء معرجها وابتهاجها عند الحصول فى مشاهدها ومواقعها (٣)

وعلى هذا فإن نعيم الجنة ولذاتها عند الاسماعيليين إنما هى لذات معنوية وليست حسية وتبعا لذلك فإن الاسماعيليين ينكرون الجنة والنار ، ولا يؤمنون بهما فاللذة الحسية عندهم فانية غير باقية ، لأن ما هو حسى متغير فاسد (٤) والعذاب الحسى كذلك لايقع على المعاند ، وإنما يكون عن طريق التناسخ التى تتلاحق على نفس أو روح المعاند ، فهى برازخ للمعاند حتى يتخلص من عناده (٥)

ومما يذكر أن جذور عقيده التناسخ تعود إلى جمله معتقدات كانت قبل الإسلام فالهندوسية تقول بتناسخ الأرواح ، وكذلك مذاهب الفلاسفة اليونان القدماء مثل سقراط وأفلاطون وغيرهم ، وذهبت المانويه (وهى احدى ديانات فارس) إلى التناسخ أيضا ، ويبدو أن الديانات الشرقية الوضعية فى غالبها تقوم على عقيدة التناسخ ، وأن الإسماعيلية عرفت تلك الفكرة منهم (٦)

١- اديان وفرق ص ١٤٩
٢- عارف تامر ، أربع رسائل تعليمية ص ٦٨،٦٩
٣- المصدر السابق ص ٧
٤- تاج العقائد ومعدن الفوائد نقلا عن كتاب أديان وفرق ص ١٤٩
٥- الحامدى ، كنز الولد نقلا عن كتاب أديان وفرق ١٤٩
٦- أنظر كتاب اديان وفرق ص ١٥٠

٣ - أشــهر رجــال الاسماعيلية .

١- اسماعيل بن جعفر الصادق محمد الباقر الهاشمي القرشي : جد الخلفاء الفاطميين ، وإليه ينتسب الإسماعيلية ، وهي فرقة من فرق الشيعة في الأصل ، وتميزت عن الاثنى عشرية بأن قالت بإمامته بعد أبيه . وقد توفي في حياة أبيه سنة (١٤٣هـ -٧٦٠م) ، وتفرقت الإسماعيلية في القول بحياته أو موته فرقاً كثيرة (١) .

٢- محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الحسيني الطالبي الهاشمي ، الملقب بالكتوم ، وهو عند بعض الإسماعيلية أول الأئمة المستورين والباقون من ولده كما تزعم الإسماعيلية ، ولد بالمدينة ، وتوفي في بغداد ، ويُقال ذهب إلى بلا الروم ، ويسمونه سابع الأئمة ، وقد قام بالإمامة بعد وفاة أبيه (أو اختفائه) سنة ١٣٨هـ (٢) .

٣- المهدي أبو محمد عبد الله المدعي أنه علوى ، وتلقب بالمهدى ، بن المهدية ، ومات سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة وعمره ثلاث وستون ، واختلف فى تسمية كثيراً (٣) .

٤- القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبد الله المهدي ، تولى الأمر بعد والده ، وأخفى موته سنة حتى دبر أموره وكان مثل والده حازم الرأي شجاعاً ، توفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة (٤) .

٥- اسماعيل المنصور : أبو طاهر اسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن عبيد الله المهدي صاحب المغرب ، كان عاقلاً شجاعاً بليغاً ، عهد بالأمر بعده إلى المعز الفاطمي ، توفي سنة احدى واربعين وثلاثمائة من الهجرة (٥) .

٦- المعز الفاطمي باني القاهرة ، معد بن اسماعيل بن سعيد بن عبد الله أبو تميم المدعى أنه فاطمي ، صاحب الديار المصرية وأول من ملكها من الفاطميين ، وكان قبل ذلك ببلاد أفريقية وما والاها من بلاد المغرب ، ادعى الانصاف والعدل

(١) انظر الاعلام ٣٦١/١ والإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ٥٦ وما بعدها و، انظر جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ١٧-١٨ .
(٢) انظر الاعلام ٣٤/٦ وانظر الإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ٧٩ وما بعدها .
(٣) انظر البداية والنهاية ١٩١/١١ إلى ١٩٢ وانظر عقائد الثلاث والسبعين فرقة ٩١/١ .
(٤) انظر البداية والنهاية ٢٢٧/١١ ، والإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٢١ وما بعدها .
(٥) انظر البداية والنهاية ٢٤٠/١١ ، والإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٢٨ وما بعدها .

ولكنهم كما قال القاضي الباقلاني : إن مذهبهم الكفر المحض واعتقادهم الرفض ، توفي سنة خمس وستين وثلاثمائة (١) .

٧- نزار بن المعز ، يكنى بأبي منصور ويلقب بالعزيز ، استوزر بوزيرين أحدهما نصراني والآخر يهودي فاعتز بها قومهما في ذلك الوقت على المسلمين ، توفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة (٢) .

٨- الحاكم بن نزار تنتسب إليه الزنادقة الحاكمية ، أقبح الحكام العبيديين وأسوؤهم كلهم كذلك ، كان كثير التلون في أحكامه وأفعاله ، حاول ادعاء الألوهية قتل سنة احدى عشرة وأربعمائه (٣) .

٩- أبو الحسن علي بن الحاكم لقب بالظاهر لاعزاز دين الله، كان في دمشق فاستدعته أخت أبيه بعد مقتل أبيه ، وألبسته تاج جده المعز واجلسته على السرير ، وبايعهُ الأمراء والرؤساء (٤) .

١٠- المستنصر : أبو تميم معد بن أبي الحسن علي الحاكم ، عهد بالأمر من بعده لولده نزار ، فخلفه الأفضل بن بدر الجمالي بعد موت أبيه ، وأمر الناس فبايعوا أخاه أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلي ، توفي سنة سبع وثمانين وأربعمائه (٥) .

١١- الآمر بأحكام الله بن المستعلي بن علي بن الحاكم ، ولي الامامة بعد أبيه وعمره خمس سنوات ، صرف وقته في اللهو والمجون تاركاً أمر الدولة لوزرائه حتى قتله الإسماعيلية النزارية سنة ٥٢٤ من الهجرة (٦) .

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣٠٢/١١ ، والأعلام ١٧٩/٨ ، والإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٣١ وما بعدها .

(٢) انظر البداية والنهاية ٣٤١/١١ ، والإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٣٦ وما بعدها .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٠/١٢-١٢ ، والإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٢٨ وما بعدها .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢/١٢ ، والإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٥٠ وما بعدها .

(٥) انظر البداية والنهاية ١٥٨/١٢ ، والأعلام ١٨٠/٨-١٨١ ، والإسماعيلية تاريخ وعقائد ١٣٥ وما بعدها .

(٦) انظر الأعلام ٢٣٤/٨ وانظر الإسماعيلية تاريخ وعقائد ص ١٦٦ وما بعدها .

٤ - أهم فرق الاسماعيلية المعاصـرة.

١ - الدروز

تعريفهم :

وهم أتباع محمد اسماعيل الدرزي الذي قال بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي سموا بهذا الاسم نسبه إليه .

وهم يسمون أنفسهم " بالموحدين " .

نشأتهم :

هذه الطائفة أنبثقت من الاسماعيلية ، وظهرت في عهد الحاكم العبيدي الحاكم بأمره الذي ادعى الألوهية فاتبعه محمد بن اسماعيل الدرزي (١).

، وقال بألوهيته وذهب إلى بلاد الشام يدعو إلى تأليه الحاكم وركز دعوته في وسط اليهود والنصارى . فتبعه كثير منهم وكانوا يقصدون من وراء ذلك العمل على هدم الإسلام .

عقيدتهم :

قامت عقيدتهم على مبادىء الاسماعيلية وزات عليها بعض العقائد التي ميزتهم كالقول بألوهية الحاكم بأمر الله ويرجعته في اخر الزمان . وقد قام الدروز في العصر الحاضر بطباعة ما يسمى ب " مصحف الدروز " أو " المنفرد بذاته " والذي حاول كاتبه أن يحاكي القرآن العظيم ، فكان كمحاولة مسيلمة الكذاب . وحاول أن ينسبه إلى بعض أئمتهم القدامى وانكشف ببعض ما ورد في من ألفاظ عصريه وظهر في هذا الكتاب التأكيد على عقيدتهم الأساسية وهي تأليه الحاكم .

---

١ - جاء الى مصر سنة ٤٠٨ هـ ودخل في خدمة الحاكم بأمره وكان أول من أعلن ألوهية ذلك الحاكم المجنون وقد هلك سنة ١٤١١ هـ .

مواطن الـــدروز :

استوطن الدروز لبنان وبانياس ، ومرتفعات جبل حوران ، الذي سمي باسم " جبل الدروز " (١).

٢ - البهـــرة

تعريفهم :

البهرة لفظ هندي قديم بمعنى التاجر ، وأطلق على هذه الفرقة من الاسماعيلية البهرة لأن أوائل معتنقي هذه النحلة من التجار - كما سيأتي في نشأتهم .

نشــأتهــم :

وأساس نشأتهم أن بعض أتباع الاسماعيلية من تجار اليمن كانوا يذهبون إلى الهند بقصد التجارة مع أهلها من الوثنيين وغيرهم ، فقام هؤلاء الاسماعيليون بالدعوة إلى دينهم فأجابهم بعض أهل الهند إلى ذلك وكان معظمهم من التجار فعرفوا بالبهرة .

فرق البهرة :

انقسمت طائفة البهرة إلى فرقتين :

١ - البهرة الداودية ومركزهم في الهند وباكستان وإمامهم يقيم في بمباي .

٢ - والبهرة السليمانية ومركزهم في اليمن الجنوبي .

عقيدتهــم :

عقيدتهم الاساسية هي القول بألوهية أئمتهم .

---

١ - انظر كتاب عقيدة الدروز عرض ونقد ، د . محمد الخطيب ، كذلك انظر حركات الباطنية في العالم الاسلامي ص ١٩٧ وما بعدها . وانظر الموجز في الاديان والمذاهب المعاصرة ص ١٣٠ - ١٣١ .

مساجدهم وصلاتهم :

البهرة يتخذون لأنفسهم أماكن خاصة للعبادة يسمونها : " جامع خانة " . ويصلون كما يصلي المسلمون ولكنهم يقولون إن صلاتهم للإمام الاسماعيلي المستور من نسل الطيب بن الآمر . فهم كعبدة الأوثان .

حجتهم :

وهم يذهبون الى مكة للحج ولكنهم يقولون إن الكعبة رمز على الإمام .

كتبهم :

ويضع البهرة كتبهم الدينية موضع السرية والكتمان ، ولم يطبع من كتبهم إلا القليل مثل " صحيفة الصلاة " ولهم كتب مخطوطة لم تطبع مث كتاب " دعائم الاسلام " و " الحقائق " وهذان الكتابان يعرضان مذهبهم ويترجمان لدعواتهم ويذكران أقوالهم [١].

٣ – الأغاخانية

وهي فرقة تنبعث من الاسماعيلية ، مؤسسها " حسن علي شاه " الملقب هو وأبناؤه الذين خلفوه في زعامة الفرقة " أغاخان " وسميت بهذا الاسم لهذا اللقب العام لزعماء الفرقة .

نشأتها :

نشأت في إيران ، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وقد تبناها الانجليز ، وهم الذين خلعوا على زعيمها لقب أغاخان .

مواطنها :

الاسماعيلية الأغاخانية يسكنون الآن نيروبي ، ودار السلام ، وزنجبار ، ومغشقر ، والهند وبعضهم في سوريا ، ومركز القيادة الرئيسي هو مدينة كراتشي .

---

١ – أنظر الاسماعيلية المعاصرة ص ١٣١ وما بعدها . كذلك انظر الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ١٣١ – ١٣٢ .

عقـيدتهـا :

أسـاس عقيدتهـم هـو القـول بألوهيـة زعيمهـم " أغاخـان " ويقدسـونه ويصفونه بصفات الألوهية ويدفعون له خمس مايكسبون .

وقد عرف الناس أغاخان ماجنا سكيراً مقامراً منغمساً فـي مواطن الفسـاد والخنا ، حتى عرف ذلك أتباعه ولكن يقولون إن كل ما يفعله فهو لشيء في علم الله (١).

١ - انظر الموجز في الاديان والمذاهب المعاصرة ص ١٣٢ وما بعدها . كذلك انظـر الاسماعيلية المعاصرة ص ١٣١ وما بعدها .

" لابد من الاعتراف بأن الحركات الباطنية ليست سوى مجموعة من المدارس الفلسفية الفكرية قائمة بذاتها تزخر بالحيوية الفكرية المتفاعلة ، وبالعقلية الخلاقة المبدعة التي استنبطت العلوم وانتزعت الأفكار الثورية والاشتراكية ، وابتكرت السنن والقوانين وأوجدت النظم والأحكام " (١) .

ومن خلال هذا العرض السريع نجد أن الباطنية قد شربت وارتوت من موارد هذه الديانات والمذاهب الفكرية ، بل إن الفكر الفلسفي يعتبر أقوى تلك المؤثرات ، إذا أخذ دعاة فرقة الإسماعيلية في هذا العصر يمجدونه ، ويرفعون من شأنة ، بل يفتخرون به ، وعلى هذا فإن العلاقة لا تعدو كونها علاقة تأثر وأن مصادر الفكر الباطني عموما والإسماعيلية على وجه الخصوص ، هي مصادر بعيدة كل البعد عن الإسلام عقيدة وشريعة ، فهي دخيلة عليه أرادت من ذلك إقتلاع جذوره ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون (٢) .

---

(١) الحركات الباطنية فى الإسلام ، مصطفى غالب ص ٥٢

(٢) انظر الإسماعيلية المعاصرة ، لمحمد الجوير ص ٣٠

٤ – القاب الباطنية

أطلقت على هذه الطائفة أسماء كثيرة للتمويه على الناس ، بعضها يقبلونه وبعضها لا يقبلونه ، وذكر الإمام أبو حامد الغزالي (١) : أن لهم عشرة ألقاب .

الباطنية ، والقرامطة ، والقرمطية ، والخرمية ، والخرمدينية ، والإسماعيلية ، والسبعية ، والبابكية ، والمحمرة ، والتعليمية ، فزاد فرقتين ، ولم يذكر أبو حامد لهم ألقاباً سوى الألقاب المذكورة ، وذكر غيره أن من ألقابهم الملاحدة (٢) .

قال أبوحامد : ولكل لقب سبب :

أما الباطنية فإنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظاهر مجرى اللب من القشر ، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية ، وهي عند العقلاء الأذكياء نور وإشارات إلى حقائق خفية، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار ، والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها متسارعاً إلى الاغترار كان تحت الأواصر (٣) والأغلال ، وأرادوا بالأغلال التكليفات الشرعية ـ قالوا بزعمهم ـ أن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من اعبائه ، بزعمهم .

وهم المرادون بقوله تعالى : ((ويضع عنهم إصرارهم والأغلال التي كانت عليهم)) "الأعراف : ١٥٧" .

قال : وربما موهوا بالاستشهاد عليه بقولهم : ان الجهال المنكرين للباطن

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ـ أبوحامد ـ برع في علوم كثيرة ، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة ، منها : (إحياء علوم الدين) ، و(تهافت الفلاسفه) ، وغيرهما ، رحل إلى الشام وبيت المقدس وأقبل على العبادة والزهد وفي آخر حياته مال إلى سماع الحديث والتحفظ للصحيحين ، توفى سنة ٥٠٥ هـ .

انظر : الأعلام للزركلي ٢٢/٧ . ، البداية والنهاية ١٨٧/١٢ .

(٢) انظر ذكر مذاهبالفرق الأثنتين وسبعين ، للشيخ عبدالله اليافعي ، ص ٩

(٣) أرادوا بالأواصر الأثقال والأوزار .

هم الذين أريدوا بقوله تعالى : ((فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)) "الحديد : ١٣".

قال : وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع ، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على التحكم بدعوى الباطن على حسب مايوجب الانسلاخ عن قواعد الدين ، أو تسقط البينة بموجب الألفاظ الصريحة ، فلا يبقى للشرع عصام يرجع إليه ، ولا يعول عليه .

قال الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي [1] : هذه الآية التي استشهدوا بها الأنسب أن يكونوا هم من أهل العذاب المذكور فيها ، لا من أهل الرحمة ، لأن في الآية المذكورة .

"وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور" (الحديد : ١٤)

وهم الذين غرتهم الأماني حتى جاء أمر الله بإسقاطهم التكاليف ، وإبطالهم ظواهرها ، وتركهم الأوامر والنواهي ، وزعمهم أنهم قد بلغوا إلى حالة اسقطت عنهم التكاليف ، وكل هذه المذكورات من جمل الأماني والغرور ،

---

(١) هو عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني ، ثم المكي . ولد قبل السبعمائة بسنتين أو ثلاث أي ولد سنة (٦٩٨ أو ٦٩٧ هـ) . مؤرخ باحث متصوف ، من شافعية اليمن . نسبتة إلى يافع من حمير . ومولده ومنشأه في عدن ، حج سنة ٧١٢ هـ ، وعاد إلى اليمن . ثم رجع إلى مكة سنة ٧١٨ هـ فأقام ، وتوقف بها . من كتبه "مرآة الجنان ، وعبر اليقظان ، في معرفة حوادث الزمان ، وهو يقع في أربعة مجلدات . وله كتاب "روض الرياحين في مناقب الصالحين" وكتاب "الإرشادوالتطريز" الذي ذكر فيه حكاية منسوبة للشيخ عزالدين بن عبدالسلام في : رسائل وفتاوى في ذم ابن عربي الصوفي ص ٧٨ . ، توفى اليافعي رحمه الله في العشرين من جمادي الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة بمكة المكرمة .

أنظر ترجمته في شذرات الذهب ٢١٠/٦ ، طبقات الشافعية للسبكي ١٠٣/٦ ، البدر الطالع ٢٥٥/١ ، الأعلام ٧٢/٤ ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق د. ذكي مبارك ١٨٣/١ ، معجم المؤلفين ٣٤/٦ .

فالعذاب المذكور في الآية بهم أليق وأنسب ، هذا إذا اقتصرنا في الإستدلال على مجرد مفهوم الآية ، وإلا فمعنا قواطع الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على كونهم مبطلين ، بل من الدين مارقين ، وأن العذاب إنما يستحقه من نحا مذهبهم في جحد الشرائع ، والتلاعب بالدين [١] .

وأما القرامطة : فإنما لقبوا بها نسبة إلى رجل يقال له حمدان [٢] قرمط، كان أحد دعاتهم في الإبتداء ، فاستجاب له في دعوته رجال فسموا : قرامطة ، وقرمطية .

وأما الخرمية : فهو بالخاء المعجمة مضمومة ، والدال مفتوحة ، وفي آخره ياء النسبة .

ويقال لهم : الخرمدينية على ماذكر من الضبط مع إسكان الميم ، وكسر الدال المهملة وبإسكان الياء المثناة في تحت .

قال الإمام أبوحامد : لقبوا بها نسبة لهم إلى حاصل مذهبهم وزبدته ، فإنه راجع إلى طيّ بساط التكليف ، وحط أعباء الشرع عن المتعبدين ، وتسليط الناس على اتباع اللذات ، وطلب الشهوات ، وقضا الوطر من المباحات

---

(١) انظر ذكر مذاهب الفرق الأثنتين وسبعين ص ٩٢

(٢) هو حمدان بن الأشعث . ولقب بقرمط لقصر شديد في قامته ورجليه ، فكان يقرمط في مشيته إذ كان خطوه قصيرا ، جاء من بلدة خوزستان (الأهواز) وهي بين فارس والبصره وقدم إلى الكوفة ، وتظاهر بالزهد والورع والتقشف . ثم دعى إلى امام من أهل البيت ، حتى اجتمع حوله جمع كبير ، ثم دعى أهل قرية النهرين ـ التي كان يقيم فيها ـ إلى اعتناق مذهبه ، فأجابوه .

أنظر : تلبيس إبليس ص ١٢٣ ـ ١٣٥ ، جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص ١٥٧ ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي د./ الخطيب ص ١٣٥ ومابعدها ، القرامطة محمود شاكر ص ٩ ـ ١٢ .

والمحرمات [١] .

وقد كان هذا لقباً للمزدكية ، وهم أهل الإباحة من المجوس ، الذين نبغوا في أيام [قباذ] [٢] وأباحوا النساء وإن كن من المحارم ، وأحلوا كل محظور في الشريعة فكانوا يسمون " خرمدينية " فهؤلاء أيضاً لقبوا بها لمشابهتهم إياهم في آخر المذهب ، وإن خالفوهم في المقدمات ، وسوابق الحيل والإستدراج .

وأما " البابكية " : فاسم طائفة منهم بايعوا رجلاً يقال له : بابك الخرمى[٣]

قال أبو حامد : وكان خروجه في بعض الجبال بناحية أذربيجان ، في أيام المعتصم بالله تعالى ، فاستفحل أمرهم ، واشتدت شوكتهم ، وقاتلهم أفشين[٤] ، صاحب حبس المعتصم ، مداهناً له في قتاله ، ومتخاذلاً عن الجد في

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للشهرستاني ص ٢٣٣

(٢) هو قباذ بن فيروز ، والد أنو شروان العادل ، وقد ظهر في زمنه (مزدك بن ناهذان) مؤسس (المزدكية) وقد ادعى (مزدك) النبوة وأظهر الإباحية ، وانتهى أمره إلى أن ألزم (قباذ) إلى أن يبعث امرأته ليمتع . بها غيره ، فتأذى (أنو شروان) من ذلك الكلام غاية التأذي الأمر الذي جعله يقتل مزدك وأتباعه .

انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ١٢٤ .

(٣) بابك الخرمي فارسي مجوسي الأصل ، دخل في الإسلام وتسمى الحسن ، وقيل الحسين كان يطمع في استرجاع ملك فارس ودينها فحارب المسلمين لأجل هذا الغرض حتى قتل سنة ٢٢٣هـ . أنظر في شأنه الفرق بين الفرق ٢٦٦ ، ٢٦٩ العبر في خبر من غبر ٣٠٤/١ ، تلبيس إبليس ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ، وقد عدهم ـ أي البابكية ـ فخر الدين محمد بن عمر الرازي في كتابة اعتقادات فرق المسلمين و المشركين ، من الذين يتظاهرون بالإسلام وإن لم يكونوا مسلمين "

انظر الإعتقادات ص ١٠٨ ـ ١٠٩

(٤) أفشين : خيذر بن كاوس ، فارسي الأصل جعله المعتصم في خدمته ثم أوكل إليه مقاتلة بابك الخرمي . اختلف المؤرخون في أمره فذكر بعضهم أنه انقلب على المعتصم فقتله ، أنظر : الفرق بين الفرق ٦٧ .

قمعه ، إضماراً لموافقته في ضلاله ، فاشتدت وطأة " البابكية " على جيوش المسلمين ، حتى فرقوا جند المسلمين ، وبدو لهم منهزمين ، إلى أن خبت ريح النصر ، واستولى عليهم المعتصم ، المترشح للإمامة في ذلك العصر ، فصلب بابك ، وصلب أفشين بإزائه .

وقال (١) : وقد بقى من البابكية جماعة يقال أن لهم ليلة في كل سنة يجتمع رجالهم ونساؤهم ، ويطفئون سرجهم ، ثم يتناهبون النساء ، فيثب كل رجل إلى امرأة يظفر بها ، ويزعمون أن من احتوى على امرأة بالإصطياد استحلها ، فإن الصيد من أطيب المباحات(٢) .

قال : ويدعون مع هذه البدعة نبوة رجل كان من ملوكهم قبل الإسلام ، يقال له : شروين(٣)

وأما " الإسماعيلية " : فنسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر رضى الله عنهما زعموا أنه إمامهم ، وأن دور الإمامة إنتهى إليه ، إذ كان هو السابع من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأدوار الإمامة عندهم سبعة ، وأكبرهم يثبتون له منصب النبوة ، وأن ذلك يستمر في أعقابه ونسبه(٤)

---

(١) أى الغزالي في : فضائح الباطنية ص ١٥ .

(٢) تخصيص ليلة فسق في السنةليست مقصورة على "البابكية" فقط بل هي عامة للباطنية، ذكر هذا كل من صنف عنهم أنظر: بيان مذاهب الباطنية وبطلانه للديلمى ص ٨٧ قال : " الوجه الخامس عشر مما يدل على كفرهم ما ثبت بالتواتر أيضا كفرهم في ليلة الإفاضة التي لا تنكر .... يجتمع فيها الرجال والنساء ويفضى بعضهم إلى بعض بعد إطفاء السرج فيقع على الأم الإبن ، والأخ على الأخت وكيف اتفق"

وانظر أيضا : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ـ محمد بن مالك الحمادى اليمانى ص ٣٦ .

(٣) فضائح الباطنية : ص ١٤ ـ ١٦ .

(٤) ينظر فضائح الباطنية ص ١٦ .

وقال [١] : وقد أورد أهل المعرفة بالنسب في كتاب "الشجرة" أنه مات ولا عقب له .

وأما "السبعية" : فإنهم إنما لقبوا بها لأمرين :

أحدهما : لاعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة ، وأن الإنتهاء إلى السابع هو آخر الدور ، وهو المراد بالقيامة ، وأن تعاقب هذه الأدوار لا آخر لها قط .

والثاني : لقولهم إن تدابير العالم السفلى ، وهو ما يحويه مقعر فلك القمر منوطة بالكواكب السبعة التي أعلاها زحل ، ثم المشترى ، ثم المريخ ، ثم الشمس ، ثم الزهرة ، ثم عطارد ، ثم القمر .

وقال أبو حامد : وهذا المذهب مسترق من ملحدة المنجمين وملتفت هذا إلى مذاهب الثنوية في أن النور يدبر أجزاؤه الممتزجة بالظلمة بهذه الكواكب السبعة ، فهذا سبب تسمية هذا اللقب .

وأما "المحمرة" : فقيل إنهم لقبوا بذلك لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام "بابك" ولبسوها ، وكان ذلك شعارهم .

وقيل سببه : أنهم يقررون أن كل من يخالفهم من الفرق ، وأهل الحق : حمير . وكان ذلك شعارهم .

وقال أبو حامد : والأصح التأويل الأول .

وأما "التعليمية" فإنما لقبوا بها لأن مذاهبهم مبداها إبطال الرأى ، وإفساد تصرف العقل ، ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم ، وأنه لا مدرك للعلوم إلا التعليم .

ويقولون في مبدأ مجادلتهم لأهل الحق : العلم إما أن يعرف بالرأى ، وإما أن يعرف بالتعليم ، وقد بطل التعويل على الرأى لتعارض الآراء ، وتقابل الأهواء، واختلاف ثمرات نظر العقلاء ، فينبغي الرجوع إلى التعليم والتعلم . قال

(١) أى الغزالي في كتابة : فضائح الباطنية ١٦ .

أبو حامد : وهذا اللقب هو الأليق بباطنية هذا العصر ، فإن تعويلهم الأكبر على الدعوة إلى التعليم ، وإبطال الرأى ، وإيجاب اتباع الإمام المعصوم - وتنزيله في وجوب التصديق والاقتداء به - منزلة النبى صلى الله عليه وسلم[١] .

(١) ينظر :فضائح الباطنية ص ١٧ ، تلبيس إبليس ص ١٣١ ـ ٣٥ ، ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين للشيخ اليافعي ص ٩٠ ـ ٩٦ ، الإسماعلية المعاصرة تأليف / محمد بن أحمد الجوير ص ١٣ ـ ١٦

ينظر :فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام د / غالب عواصي ص ٢٨٢ ـ ٢٩٦

الفصل الثاني

نشأة الإسماعيلية وأصولها وعقائدها وأشهر فرقها

ويشتمل هذا الفصل على ما يلى :

١- نشـــأة الاسمـــاعيلية

٢- أصـــول الاسمـــاعيلية (أهم عقائدهم وأفكارهم)

٣- أشهر رجال الاسماعيلية

٤- أهم فــرق الاسماعيلية

١ - نشـــاة الاســماعيلية .

إن الجذر التاريخي لبداية ظهور الاعتقاد الباطني في أرض المسلمين مزاعم عبد الله بن سبأ اليهودي اليمني ، هذه المزاعم تركزت حول وجود علم سري عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبالتالي تجسد روح الإله فيه[١] .

وقد سعى أعداء الإسلام منذ بداية الدعوة الإسلامية الى هدم هذا الدين وتقويض دعائمه ونشر الفرقة بين أتباعه ، وقد اتخذت الشيعة وغيرها من الفرق الضالة من التشيع كان ستاراً عملت من خلاله على تحقيق أهدافها ومطامعها ، يقول د / أحمد أمين : والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الإسلام لعدواة أو حقد ، ومن كان يريد استقلال بلاده ةالخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواءهم »[٢] .

وإذا كان جذر الإعتقاد الباطني بدأ مع عبد الله بن سبأ ، فإن جذور هذه الفرقة توجد فى شخصيتين قياديتين خطيرتين هما : شخصية اسماعيل بن جعفر[٣] .

وشخصية أبي الخطاب[٤] اللذين سعيا معا لتأسيس حركة تتخذ من التشيع طريقا

---

(١) ينظر : العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها / د.صابر طعيمة ص٢٧

(٢) فجر الاسلام ، أحمد أمين ، ص٢٧٦ .

(٣) هو اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ، الهاشمي القرشي : جد الخلفاء الفاطميين . وإليه تنسب (الإسماعيلية) ويعرف باسماعيل الأعرج ،وكان أكبر إخوانه وأحبهم الى أبيه . وقد توفى فى حياة أبيه جعفر الصادق بالعريض بالمدينة المنورة ، ودفن بالبقيع فى سنة ١٤٣هـ وهو الراجح ، وقيل سنة ١٣٨هـ . (انظر : الأعلام ١/ ٣١١)

(٤) هو محمد بن مقلاص أبى زينب الأسدى الكوفى يكنى بأبي الخطاب ، وأبو الضبيان ، وأبو اسماعيل ، وقد كان يقول أن لكل شيء من العبادات باطنا ، وقد ظل على ضلاله ومخرقته حتى قتله عيسى بن موسى والى الكوفة من قبل العباسيين سنة ١٤٣هـ .

انظر : الفرق بين الفرق / عبد القاهر البغدادي ، ص٢٤٧هـ .

وانظر : الإسماعيلية المعاصرة ص٩٧ هامش (٣)

سهلا للخروج على تعاليم الإسلام وهدم كيانه . فأبو الخطاب الأسدى يعتبر من مؤسسي الفرق الباطنية ، بل من أساتذتها حيث سار فى أفكار الغلو شوطا كبيراً ورئيسياً ، فقد كان أستاذاً للمفضل الجعفى[1] الذى كان وراء محمد بن نصير فى أفكاره الضالة التى أسس عليها فرقته النصيرية . وكان أستاذاً لإسماعيل بن جعفر ولابنه محمد ، وزميلاً مخلصاً لميمون القداح وإبنه ، الذين عملوا بشكل فعال على انطلاقة الحركة الباطنية بثوبها (الإسماعيلي) والتى انبثقت منها أكثر الحركات الباطنية الأخري كالقراطمة والدروز وغيرها[2] .

وكان هناك صلة وثيقة بين الإسماعيلية والخطابية تكمن فى العلاقة بين إسماعيل بن جعفر وبين أتباع أبي الخطاب ، يدل على ذلك غضب جعفر الصادق على أولئك الأتباع الذين أضلوا إبنه وزجوه فى الأخطار ، حيث قال جعفر للمفضل بن عمر أحد أتباع أبى الخطاب " يا كافر يا مشرك مالك ولإبني ؟ " ، ثم قال : "ما تريد إلى إبنى ؟ أتريد أن تقتله ؟ "[3] وهؤلاء الأتباع الذين التفوا حول إسماعيل بن جعفر هم أولئك الذين نقم عليهم الإمام جعفر الصادق فكانوا أصحاب ميول ونزعات شيعية متطرفة . ساقتهم الى القول بإمامة إسماعيل بن جعفر وأسسوا الطائفة الإسماعيلية ، ومن هؤلاء ميمون القداح وابنه عبد الله[4] .

---

(١) هو المفضل بن عمر الجعفي ، كان صرافاً في الكوفة وكان من أتباع جعفر البارزين ، ناصر أبا الخطاب ثم أوجد فرقة صغيرة بإسمه بعد قتل أبو الخطاب ، وكان رغم طرد جعفر إياه ، يدعو إلى إمامة ابن جعفر إسماعيل ، ثم عاد الى الشيعة الإثني عشرية ، وكان أستاذه محمد بن نصير النميري الذى أوجد الفرقة النصيرية . أنظر : الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى عقائدها وحكم الإسلام فيها ، د.محمد أحمد الخطيب ، ص٥٩ ، الهامش رقم٤ .

(٢) أنظر : الحركات الباطنية فى العلم الإسلامى / عقائدها وحكم الإسلام فيها ، د.محمد أحمد الخطيب ، ص٢٥ ، ٥٨ .

(٣) أنظر : الإسماعيلية المعاصرة ص(١٨)

(٤) أنظر : الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى / الخطيب ص٥٩ .

وهذا مما يؤكد قول النوبختي (الشيعي الإمامي) بأن الإسماعيلية هـى فـى الأصل الخطابية أتباع أبي الخطاب[١] .

ويقول المستشرق برنارد لويس : " لقد أنشأ أبو الخطاب وإسماعيل ـ متعاونين ـ نظام عقيدة صارت أساساً للمذهب الإسماعيلى فيما بعد ، وسعياً كذلك الـى خلق فرقـة شيعية ثوريـة لتجمـع كـل الفرق الشيعية الصغرى علـى إمامـة إسماعيل وذريتـه ، ثـم افترقت بعد وفـاة أبي الخطـاب وإسماعيل وذريتـه ، ثم افترقت بعد وفاة أبي الخطاب وإسماعيل بن جعفر فرقاً كثيرة ذات أفكار متضاربة ورؤساء متخاصمين . ثم التفت هذه الفرق حـول محمـد بـن اسماعيل واستطاع وفيهم القسم الأكبر من الخطابيـة .. ونشـأت حـول محمد بـن إسماعيل الحركـة الإسماعيلية المعروفة فى التاريخ "[٢] .

ويرجـع بعض الإسماعيلية المعاصرين نشأة حركتهم إلـى إسماعيل بـن ابراهيم الخليل ، بل يرجعها البعض الآخر إلى بدء الخليقة ، والقول باستمراريتها مدي الحياة ، فهذا مصطفى غالب يقول : " وهى باعتقادي نظرة أزلية عاشت في دم الإنسانية منذ بدء الخليقة وستبقي مادامت الحياة "[٣] .

ويقـول : إن الحركـة الإسماعيلية نشـأت نشـأتها الأولـى سـنة ١٢٨هـ ، ويؤكد من يقول أنها بدأت فى عهد إسماعيل بـن ابراهيـم الخليـل ومـن أن كونهـا دعوة قديمة قدم هذا الوجود[٤] .

والإسماعيليان المعاصران مصطفي غالب وعارف تامر يدعيان أن واضـح أسس وخطط الباطنية هو الإمام جعفر الصادق وابنة إسماعيل حيث أن مصطفـي غالب يعتبر الإمام جعفر الصادق " مفجر الثقافات الفكريـة الإسلامية ، وعميد المدارس الفلسـفية الباطـنيـة فى الإسلام "[٥] ، وهـو " واضـح البـذرة الأولـى

(١) ينظر : فرق الشيعة / النوبختي ص٨٠ .

(٢) أصول الإسماعيلية / برنارد لويس ص٨٥ ـ ٨٦ .

(٣) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غاب ص ٤٦ .

(٤) ينظر : المرجع السابق ، ص٧١

(٥) المرجع السابق ، ص٥٠ .

فى صرح هذه المدارس الفلسفية "[1].

وعارف تامر يعتبر الإمام جعفر الصادق وإبنه إسماعيل من المخططين لهذه الحركة الذين وضعوا بذرتها الأولى فيقول : " باعتقادي أن الحركة الإسماعيلية يرجع أمر تخطيطها وتصميمها وغرسها إلى الإمام جعفر الصادق وأعضاء مدرسته الفكرية ومنهم ولده إسماعيل الذى نعتبره من أعضاء هذه المدرسة البارزين على أن ذلك الغرس لم يؤت أكله إلا فى فترات متأخرة ، كما أن تلك المدرسة لم تدفع تلامذتها إلى حيز الظهور إلا فى عهد الإمام محمد بن إسماعيل الذى نعتبره رأس الأئمة المستورين[2] " .

ومن خلال استقراء النصوص تبين لى ما يلي :

١ - الإسماعيلية طائفة باطنية ، انفصلت عن الشيعة الإمامية ، إثر خلاف حول الإمامة ، فقد انقسمت الشيعة بعد وفاة جعفر بن محمد الملقب (بالصادق)[3] إلى فرقتين ، فرقة نادت بالإمامة موسى الكاظم بن جعفر ، وسلسلوا الإمامة في الأكبر سناً من عقبه ، ولذلك لقبوا بالإمامية الإثني عشرية ، أما الفرقة الثانية التي تفرعت عن الشيعة فهي الفرقة الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة اسماعيل بن جعفر ، والذين تنسب إليهم هذه الفرقة[4] .

ومؤرخو الإسماعيلية يقولون : إن سبب انشقاق اتباع جعفر إلى هاتين

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٣ .

(٢) القرامطة / أصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم / عارف تامر ، ص ٤٦ .

(٣) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، سادس الأئمة الاثني عشرية عند الإمامية ، ولد بالمدينة المنورة سنة (٨٠) هـ وتوفى فيها سنة (١٤٨) هـ .

انظر : أديان وفرق د. أمين القضاة ، د/ محمد الخطيب ، محمد عوض الحضرايمة ص ١٣٢ هامش (١) .

(٤) عقيدة الدروز د/ محمد الخطيب ص ١٤ - ١٥ .

لفرقتين ، أن جعفر نص على أن يتولى اسماعيل الإمامة من بعده ، ولكن سماعيل توفي في حياة أبيه ، وبذلك انتقلت الإمامة إلى إبنه محمد بن اسماعيل بن جعفر ، لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب ولا تنتقل من أخ إلى أخيه(١) .

ولكن هناك روايات كثيرة أن جعفر لم يكن راضياً عن تصرفات ابنه اسماعيل ، وأنه قد تبرأ من أعمال اسماعيل ، وعزله عن الإمامة ، قبل موت اسماعيل ، لأنه كان مدمنا على شرب الخمر ولوعاً بالفساد(٢) .

وهناك من المؤرخين من يجعل لهذا التبدل من جعفر نحو ابنه عللا وأسباباً أخرى أهم من شرب الخمر والولوع بالنساء " وذلك أن إسماعيل كان من أصدقاء أبي الخطاب الأسدي الفاسق الملحد ، الذي ادعى الوهية جعفر . وتنسب إليه الحركة الخطابية ، مما جعل جعفر يتبرأ منه ، ويلعنه ، ولا يرضى عن الصلة التي كانت بينه وبين ابنه اسماعيل "(٣) .

٢ - إن بداية التخطيط لهذه الفرقة قد بدأ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري تقريبا . وأن جذورها ترجع الى الخطابية ومؤسسها أبو الخطاب الذي كان معاصرا للإمام جعفر الصادق وبعد موت أبي الخطاب لجأ أتباعه الى اسماعيل بن جعفر ، ومن ثم الى ابنه محمد بن إسماعيل .

٣ - إن قول عارف تامر أن جعفر الصادق هو مؤسس حركتهم فهذا افتراء عليه وهو منهم براء . إذ ثبت عنه أنه تبرأ من أبي الخطاب عندما جاهر في معتقداته المغالية فطرده من مجلسه . يقول الشهرستاني : "فلما وقف الصادق على غلوه ـ أي أبي الخطاب ـ الباطل في حقه ـ أي جعفر الصادق ـ تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه وشدد القول في ذلك وبالغ في التبري منه واللعن عليه . فلما اعتزل عنه ادعى الإمامة لنفسه "(٤) .

---

(١) طائفة الإسماعيلية ، محمد كامل حسين ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣ .

(٣) الملل والنحل ، للشهرستاني ١/١٥ .

(٤) الملل والنحل / الشهرستاني ١/١٧٩ .

٢ - أصول الاسماعيلية .

(أهم عقائدهم وأفكارهم)

١ - الالوهية : -

تذهب الاسماعيلية في عقائدها دائما الى النفي المطلق للصفات عن الله ، وإنكار أيه صفة عنه سبحانه من التي وصف بها نفسه في القرآن الكريم ، لأنه قال - كما يزعمون - فوق متناول العقل ، والعقل عاجز عن إدارك كنهه ، فنفى الصفات عن الله اعتقاد أساسي في التوحيد عند الاسماعيلية ، لأن ثباتها - حسب زعمهم - يعني عدم التوحيد .[١] .

والاسماعيلية يزعمون أن جميع الاسماء والصفات الالهية ، إنما تليق بمبدعاته الروحانية ، ومخلوقاته التي هي الصور الجسمانية[٢]. فأسماء الله الحسنى التي ذكرت في القرآن الكريم ما هي إلا إشارة إلى حدوده الروحانية العلوية والجسمانية السفلية ، ويؤولون قوله تعالى : (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها)[٣]. بأالمقصود بالاسماء هي الحدود ، أي تطلبون الوصول الى توحيد الله من جهتهم .

والاسماعيلية بعد أن تجرد الله عز وجل من جيمع اسمائه وصفاته تحولها الى أول مبدع أبدعه الله تعالى - وهو كما يزعمون - : (العقل الاول) ، أو (السابق) ، مخترعاً من نوره ، ثم ظهرت جميع الموجودات منهما وبهما ، فالفيض الاول (أي العقل أو السابق) هو أصل الايجاد ، وهو المبدأ واليه المعاد[٤]..

---

١ - د . الخطيب ، الحركات الابطنية ص ٨٥ .

٢ - ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة نقلاً عن كتاب أديان وفرق ص ١٤٤ .

٣ - سورة الاعراف .

٤ - عارف تامر الحركات الباطنية ص ٨٨ .

فالخالق عند الاسماعيلية اذن هو العقل الكلي والنفس الكلية (أي السابق والتالي) ، وإذا ذكر الله عندهم فالمقصود هو العقل الكلي ، فإذا عرفنا ذلك استطعنا أن تبين سبب الاهتمام الكلي لدعاة الاسماعيلية في هذا الموضوع ، وما ذلك الا لاثبات فضل حدين من حدود الدين - عندهم - هما حد (النبي) ، وحد (الوصي) أو (الامام) ، وأن هذين الحدين في العالم السفلي (أي في الأرض) يقابلان حدين شريفين هما أعلى الحدود في العالم العلوي وهما حد (العقل الكلي أو السابق) ، وحد (النفس الكلية أو السابق) ، وهذان الحدان هما المشار اليهما (بالكاف والنون) ، وأن (النبي) ومن قام مقامه من وصي أو إمام يتصف بكل الصفات التي للعقل الكلي ، وأن أسماء الله الحسنى هي أسماء العقل الكلي أو السابق فهي أذن تنطبق على النبي أو الامام ، فالامام الاسماعيلي اذن هو ممثل العقل الكلي ، فهو الواحد ، الاحد ، الفرد الصمد ، وعلى ضوء ذلك قال ابن هانيء الاندلسي الشاعر في مدح المعز لدين الله الفاطمي : -

ماشئت لا ما شاءت الاقدار فأحكم فأنت الواحد القهار[١].

ومما يذكر أن نظرية الحدود العلوية والحدود السفلية ، هي نظرية يونانية تسمى بنظرية (المثل والممثول) . ذكرها أفلاطون مرارا في كتبه ، وأخذتها الاسماعيلية عنه[٢].

---

١ - د . الخطيب ، الحركات الباطنية ص ٨٧ .

٢ - ديوان المؤيد ، نقلاً عن كتاب أديان وفرق ص ١٤٥

ومن اعتقاداتهم في هذا الموضوع زعمهم بانبثاق سبعة عقول قائمة بالفعل عن النفس الكلية أو (التالي) ، وهذه العقول في العالم العلوي يقابلها في العالم السفلي أئمة سبعة .

وعلى أساس معتقدهم هذا ، فهم يزعمون أن هذا العالم له دورات متعاقبة تقوم على مبدأ الرقم (سبعة) ، وكل دور له (أنبياء سبعة) ، و (أوصياء سبعة) ، فإذا انتهى أو تم دور العقل السابع الاخير ، اتى من بعده دور جديد متمثل بنبي جديد يدعو الى شريعة جديدة ينسخ بها شريعة النبي الذي كان قبله ، ولهذا فهم يزعمون أن (محمد بن اسماعيل) مؤسس فرقتهم هو النبي الجديد الذي افتتح دورا جديدا في دورات هذا العالم هو دور القيامة ، بعد أن انتهى الدور السابق ، والذي بدأ به (محمد ﷺ) ووصيه (علي بن أبي طالب) ، وتم ب(أسماعيل بن جعفر) ، وسينتهي الدور الجديد بظهور قائم القيامة [١].

وهكذا فقد اعتقد الاسماعيلية ، أن الامام من نور الله وأن جسمه اشرف الاجسام ، وأن جسمه (عقل) بالنسبة لأجسام البشر ، ولهذا وضعوا الإمام بأنه قبله النفس والروح ، وعللوا وصفهم للإمام بأنه قبلة الارواح ، بأنهم في الصلاة مثلا يتوجهون نحو الكعبة ، والكعبة من تراب ، فالانسان يتجه إلى الكعبة بجسمه الترابي ، ولكن نفس المصلى متجهه إلى الامام ، وقالوا ان معنى الحج هو القصد لاشرف البقاع ، واشرف البقاع في الظاهر (الكعبة) ، وهي في التأويل (حجة الله على خلقه) الذي هو أشرف الخلق وهو قبلة النفوس التي تتوجه النفوس اليها لخلاصها[٢].

---

١ - د . الخطيب ، الحركات الباطنية ص ٩٠ ، ٩٢ .

٢ - ديوان المؤيد ص ٧١ ، ٧٢ نقلا عن كتاب اديان وفرق ص ١٤٦ .

والحقيقة أن الذين يدرسون الاسماعيلية يستطيعون أن يدركوا مدى تأثير العقائد الاسماعيلية بالفلسفة اليونانية الشرقية والغربية ، فالفيثاغوريون الذين جعلوا كل الاعداد أصولا لعقيدتهم ، جاءت الاسماعيلية لتصبغها بالصبغة الاسلامية على حسب العقيدة الاسماعيلية ، ومن ثم ظهرت عندهم عقائد في الاعداد وما يقابلها من أصول دينية (١).

ونظرية الفيض الافلاطينية القائمة على أن الله فاض عنهُ العقل الأول والنفس ، من اوضح الامثلة على اقتباس الاسماعيلية منها ، فإذا قرأنا نظرية الحدود عند الاسماعيلية نجد أنفسنا أمام نظرية الفيض في الفلسفة الافلاطونية الحديثة .

٢ - النبوات : -

كما ذكرنا في موضع الالوهية ، فإن الاسماعيلية تقول أن كل دور له (انبياء سبعة) و (أئمة أو أوصياء سبعة) ، فاذا تم الدور جاء النبي السابع لينسخ شريعة النبي الذي كان قبله ، وهكذا فان النبي السابع الذي نسخ شريعة الاسلام في نظر الاسماعيلية هو (محمد بن اسماعيل) ، فهو ناسخ ، وفاتح لعهد جديد ، وهو صاحب شريعة عطلت بقيامها ظاهرة شريعة (محمد ﷺ) (٢).

وهذا الزعم من قبل الاسماعيلية تعني انكار أن النبي ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وهذه من العقائد الثابتة عند المسلمين ، ومن ينكرها فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

---

١ - د . محمد كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية ص ١٧٤ .

٢ - د . عبدالرحمن بدوي ، مذاهب الاسلاميين ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

ومن ناحية أخرى ، فالوحي عند الاسماعيلية ، بعيد كل البعد عن الحقائق والاخبار التي وردتنا عن رسول الله ﷺ ، لأنه قائم على اعتقادهم بأن العقل وليس الله هو مدبر هذا الكون وهو مرسل الوحي الى الانبياء (١) . وزعموا أن جميع الانبياء لم يأخذوا التأييد ، ولا اتصل بهم الوحي ، الا عن طريق الحدود الروحانية ، واستنادا الى ذلك ، فالوحي وبالتالي القرآن مستمد من سلسلة الحدود العلوية التي أولها السابق (العقل الاول) ، ولذلك فالقرآن ليس كلام الله لكنه في نفس الوقت ليس كلام رجل يطلقه كما يشاء وهكذا فالقرآن والنبوة عموما ، ليس سوى جزءا أو مرحلة من استمرار السابق والتالي لتدبير العالم بشريه المادي والروحي ، والقرآن نتيجة الوحي الهابط من سلسة العقول على النبي ، لكن الوحي مستمر ، والادوار مستمر متباينة ، فلا غرابة اذن أن يقوم نبي كل دور بنسخ شريعة سابقة من هنا فليس ما يمنع من انتظار صاحب الدور السابع ، ليقوم بنسخ الشرائع جميعاً بما فيها الشريعة التي تتمثل بالقرآن ، والشريعة تتطور على يد الامام الذي يكشف باطنها بعد أن يعلن النبي ظاهرها ، وهذه مرحلة تسبق مرحلة النسخ على النبي التالي ، والامام لابد منه في كل عصر ، وهو معصوم يرجع اليه في كل العلوم ، وعصمته تعادل عصمة النبي ، وهو يرث الوحي عن النبي . (٢).

أما بصدد تأويلات الاسماعيلية لقصص الانبياء ومعجزاتهم فجميعاً تدور في فلك واحد بأن تجعل هذه القصص والمعجزات رموزا لأشياء لايفهمها إلا أهل الباطن ، ومن أمثلة ذلك : قصة آدم وخروجه من الجنة بسبب أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الاكل منها ، فقد أنكرت الاسماعيلية هذا التفسير .

---

١ - د . الخطيب ، الحركات الباطنية ، ص ٩٦.

٢ـ سامي العياش ، الاسماعيليون في المرحلة القرمطية نقلا عن كتاب أديان وفرق ص ١٤٧

وزعمت أن له تأويلات باطنية ، وهو أن آدم لم يكن أول الخلق . أنما كان قبله عالم عاش بينهم آدم ، وأن آدم هذا كان له حجة هو الذي رمز اليه في القرآن الكريم بحواء أي أن حواء عندهم لم تكن أنثى وليست بزوجة آدم ، إنما كانت أقرب الدعاة إلى آدم وحواء كانا يتعمان في دعوة الإمام الذي كان قبل آدم ، وهي دعوة اسماعيلية عبر الله عنها بالجنة ، فتطلع آدم إلى مرتبة دينية أعلى من مرتبته ، فأخرجه الإمام من الدعوة ، ولكن عاد إليها بعد أن تاب الامام عليه .(١).

ولعل تأويلات الاسماعيلية عن قصص الانبياء ومعجزاتهم تجعلنا نتفهم قول علمائنا عنهم ، أنهم يبطلون المعجزات وينكرون النبوات فالاسماعيلية في مزاعمهم السابقة ، يكذبون بتأويلاتهم الملتوية القرآن الكريم في قصصه عن الانبياء ، وبالتالي يجردون الانبياء عليهم الصلاة والسلام من كل معجزة مادية ظهرت على يديهم .(٢).

٣ - تناسخ الارواح : -

يفصل أبو حامد الغزالي معتقد الاسماعيلية في اليوم الآخر فيقول : " وقد أتفقوا عن آخرهم على أنكار القيامة ، وأن هذا النظام المشاهد في الدنيا ، من تعاقب الليل والنهار ، وحصول الانسان من نطفه والنطفة من انسان ، وتولد البنات وتولد الحيوانات لايتصور ابدا الدهر ، وأن السموات والأرض لايتصور انعدام اجسامها . وأولوا القيامة وقالوا : إنما رمز إلى خروج الامام وقيام قائم الزمان وهو السابع الناسخ للشرع المغير للأمر . وأنكروا المعاد فأنكروا ما ورد به الانبياء ولم يثبتوا الحشر والنشر للأجساد ، ولا الجنة أو النار .

١ - د . محمد كامل حسين ، طائفة الاسماعيلية ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

٢ - د . الخطيب الحركات الباطنية ص ٩٩ .

الخـــاتمـــة

الحمد لله أولاً وأخراً ، والصلاة والسلام على النبي الأمي وبعد :

لقد ظهر لي من خلال هذا البحث خطورة (الإسماعيلية الباطنية) ممثلة بفرقها المعاصرة على المسلمين قديماً وحديثاً .

فإسماعيلية اليوم ليسوا كإسماعيلية الأمس ، فلهم المناصب العالية والمحافل العامرة ، وهم يعملون بصمت ودهاء للكيد بالإسلام والمسلمين .

وفي نهاية المطاف نخلص إلى نتائج نذكر منها ما يلي :

١- أن ظهور الفرق كان قديماً وهو البذرة الأولى التي نبتت منها الشجرة الإسماعيلية الخبيثة .

٢- لقد كان للفلسفة الفيثاغورثية والأفلاطونية المحدثة الأثر الواضح في مقولات ومصطلحات الباطنية ، وبغيرها من الأديان والمذاهب المغايرة للإسلام كاليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة .

٣- أن الباطنية لها ألقاب متعددة تطلق عليها ، والإسماعيلية تفتخر بلقب الباطنية لإصرارها على تطبيق مبدأ (التقية) والقول (بالظاهر والباطن) .

٤- أن الإسماعيلية طائفة باطنية ، انفصلت عن الشيعية الإمامية ، وأن التخطيط لهذه الفرقة قد بدأ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري .

٥- عرفنا ضلال هذه الفرقة بعقيدة الألوهية ، كذلك ضلالهم بعقيدة ختم النبوة بل ادعوا لأئمتهم النبوة والرسالة ، ومدى ضلال هذه الفرقة عندما قالت بالتناسخ تأثراً بالمذاهب الهندية القديمة .

٦- عرضنا أشهر رجال فرقة الاسماعيلية وأبرز من قام بتأسيسها .

٧- أن لهذه الفرقة الباطنية فروع خبيثة وسامة لا تزال تنمو وتترعرع إلى الآن كالدروز والبهرة والأغاخانية وعرفنا مبادئ ومعتقدات كل فرقة وكيف نشأت ومواطن الإنتشار والنفوذ .

هــذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على النبي الأمي الأمين وعلى آله وأصحابه والتابعين .

المصـــــادر والمـــراجـــع

١.إغاثة اللهفان ، للإمام ابن القيم : ط الجلي ، ١٣٨١ هـ ، القاهرة .

٢.الأعلام ، خـير الديـن الزركلـي ، الطبعـة السادسـة ، ١٩٨٤ م ، دار العلـم للملايين ، بيروت .

٣.اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . فخر الدين محمد بـن عمـر الـرازي ، ضبط وتقديم وتعليق . محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربـي ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ .

٤.الإسماعيلية المعاصرة . الأصول . المعتقدات . المظاهر الدينية والاجتماعية . تأليف محمد بن أحمد الجوير ، الطبعة الاولى ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

٥.الإسماعيلية تاريخ وعقائد ، الشيخ إحسان إلهي ظهير ، إدارة ترجمـان السنة ، لاهور ، باكستان ، ط أولى ، ١٤٠٦ ه طبع دار علم الكتب ، الرياض .

٦.أصول الاسماعيلية والفاطميـة والقرامطـة . برنـارد لويـس ، دار الحداثـة ، الطبعه الاولى ، ١٩٨٠ م .

٧.أديان وفرق ، د / أمين القضاة ، د / محمد الخطيب ، محمد عوض الهزايمـة (دار عمـار ، مكتبـة الاقصى ، مكتبـة الحرمين) الطبعـة الاولـى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .

٨.أربع رسائل تعليمية . تحقيق عارف تامر ، دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٨م.

٩.الإسماعيلية تاريخ وعقائد . الشيخ إحسان الهي ظهير . الناشر ادارة ترجمـان السنة . لاهور باكستان الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ .

١٠.بلوغ الأرب ، محمود شكري الألوسي : ط ، دار الكتاب العربي ، مصر

١١.البداية والنهاية ، ابن كثير : مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢ م

١٢.البدر الطالع ، محمد بن علي الشوكاني ، دار الباز ، مكة المكرمة .

١٣.التاريخ الكبير ، للإمام البخاري : الطبعة الاولى ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهندي ، ١٣٦١ هـ

١٤ـ التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ، د زكى مبارك ، زكى مبارك دار الجيل بيروت
١٥- تلبيس إبليس ، للحافظ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى البغدادى ، تحقيق : عصام فارس الحرستانى ، خرج أحاديثه : محمد إبراهيم الزغلى ، المكتب الاسلامى . بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ
١٦- تبيين كذب المفترى فيما نسب الى أبى موسى الاشعرى،ابن عساكر الدمشقى دار الكتاب العربى بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
١٧- جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ، تأليف ع أمير وعلى خريس ، المركز الثقافى العربى بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٤ م .
١٨- الحلية لابى نعيم . مطبعة السعادة ، ١٣٩٤ هـ .
١٩- الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى عقائدها وحكم الإسلام فيها ، د/ محمد أحمد الخطيب مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن ، ط ثانية ، ١٤٦٠ هـ
٢٠- الحركات الباطنية فى الإسلام ، مصطفى غالب ، دار الكتاب العربى بيروت .
٢١- الخطط للمقريزى ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ
٢٢- درء وتعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ، جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض
٢٣- دراسات فى الفرق ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ثانية ، ١٤٠٤هـ
٢٤- ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين تصنيف الشيخ : عبدالله بن أسعد اليافعى ، تحقيق : د. موسى بن سليمان الدويش دار البخارى للنشر والتوزيع المدينة المنورة الطبعة الأولى ١٤١٠هـ
٢٥- سير أعلام النبلاء ، الأمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى موسسن الرسالة بيروت ط ٦ ، ١٤٠٩هـ
٢٦- السنة لابن ابى العاصم ، تحقيق : الألبانى ، الطبعة الأولى المكتب الإسلامى ، بيروت ١٤٠٠هـ
٢٧- سنن أبى داود ، أبو داود ، إعداد وتعليق عزت عبيد دعاس ، الطبعة الأولى ، حمص ، ١٣٨٨هـ
٢٨- شرح صحيح مسلم للإمام النووى ، المطبعة المصرية ، القاهرة
٢٩- شرح أصول أعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبى القاسم اللالكائى ، تحقيق د. أحمد سعد حمدان ، دار طيبة الرياض
٣٠- الشريعة ، للإمام أبى بكر الأجرى تحقيق محمد حامد الفقى ، الطبعة الأولى ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ

٣١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحى بن العماد الحنبلى ، دار أحياء التراث العربى بيروت
٣٢ – صحيح مسلم : ط ، دار الطباعة العامرة أستنبول ، ١٣٣٢هـ وطبعة محمد فؤاد عبد الباقى
٣٣- طبقات بن سعد : دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٠هـ
٣٤ – طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى ، دار المعرفة للطباعة بيروت
٣٥- طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظمها،عقائدها ، تأليف محمد كامل حسين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط أولى ، ١٩٥٩ م
٣٦- العبر فى خبر من غبر، للحافظ شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان الذهبى ، تحقيق أبو هاجر محمد العبد بن بسيونى زغلول ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع مكة المكرمة ، الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ
٣٧- العقيدة والشريعة فى الإسلام. إجناس جولد تسهير، دار الكتب الحديثة بمصر ، مكتبة المثنى ببغداد ، ط ثانية
٣٨- العقائد الباطنية وحكم الاسلام فيها د/ صابر طعيمه ، المكتبة الثقافية بيروت الطبعة الاولى سنة ١٤٠٦هـ
٣٩- عقيدة الدروز . د/ محمد أحمد الخطيب ، مكتبة الأقصى ، عماد الأردن الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ
٤٠ – الفرق بين الفرق ، لعبد القاهر البغدادى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، مصورة دار المعرفة ، بيروت ، وطبعة الكوثرى .
٤١ – فضائح الباطنية أبو حامد الغزالى تحقيق عبد الرحمن بدوى ، مؤسسة دار الكتاب الثقافة ، الكويت
٤٢- فرق معاصرة تنتسب إلى الاسلام وبيان موقف الاسلام منها ، اعداد غالب بن على عواجى ، مكتبة لينة للنشر والتوزيع ، الطبعة الاولى ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م
٤٣- فجر الإسلام أحمد أمين ، دار الكتاب العربى ، بيروت الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٩م .
٤٤- فرق الشيعة ، الحسن بن موسى النوبختى ، الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـ
٤٥- القرامطة . تأليف : الشيخ محمود شاكر . المكتب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٩هـ
٤٦- القرامطة ، أصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم . تأليف عارف تامر ، دار مكتبة الحياه ، بيروت
٤٧- كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة ، محمد بن مالك اليمانى ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى مطبعة الانوار ١٣٥٧هـ

٤٨- لسان الميزان للحافظ بن حجر العسقلاني ، مصورة عن طبعة حيدر أباد ١٣٢٩هـ
٤٩- سرى العيون ، جمال الدين بن نباته المصرى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٣٨٣هـ
٥٠- مناهج السنة لشيخ الاسلام بن تيمية ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم : طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض
٥١- مجموع فتاوى شيخ الاسلام ، ابن تيمية ، جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بم محمد بن قاسم ، بمساعدة أبنه ، طبعة أولى ١٣٨١ هـ ، الرياض
٥٢- المستدرك ، للحاكم النيسابورى مصورة دار الكتاب العربى بيروت
٥٣- مقالات الاسلاميين ، لبى الحسن الأشعرى ، الطبعة الثالثة تصحيح ريتر ١٤٠٠هـ ، وطبعة أخرى بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٣٦٩هـ
٥٤- الملل والنحل ، للشهر ستانى ، الطبعة الأولى مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ١٣٨١م
٥٥- مسند الامام أحمد بن حنبل ، مصورة المكتب الاسلامى،وطبعة أحمد شاكر،دار المعارف القاهرة
٥٦- ميزان الاعتدال ، للحافظ الذهبى ، تحقيق على محمد البجاوى ، الطبعة الاولى ، الحلبى القاهرة، ١٣٨٢ هـ
٥٧- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، دار احياء التراث العربى
٥٨- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد . تأليف عثمان بن على بن حسن مكتبة الرشد ، الرياض .الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ
٥٩- المهدية فى الاسلام تأليف : سعد محمد حسن ، دار الكتاب العربى، بمصر ، ١٣٧٣هـ
٦٠- المذاهب الاسلامية ، محمد أحمد أبو زهرة ، مكتب الأدب
٦١- مذاهب الاسلاميين ، د. عبد الرحمن بدوى ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٣م
٦٢- الملل والنحل الواردة فى كتاب الأنساب للإمام السمعانى. جمع عبدالله صالح البراك . دار الوطن الرياض الطبعة الأولى ١٤١٧هـ
٦٣- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د . على سامى النشار ، دار المعارف ط ٧
٦٤- وفيات الاعيان وأنبا أبنا الزمان . لأبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٨ م .

الفهرس

الفصل	الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة		١
الفصل الأول	نشأة الفرق وتاريخ ظهورها	٣
١	مدخل عن تاريخ ظهور الفرق	٤
٢	مفهوم الباطنية	٩
٣	مصادر الباطنية	١٠
	تمهيد	١١
	١- تأثير اليهودية والنصرانية	١٢
	٢- تأثير الفرس والمجوس	١٣
	٣- تأثير الصابئة	١٥
	٤- تأثير الفلسفة	١٥
٤	ألقاب الباطنية	٢٠
الفصل الثاني	الاسماعيلية أصولها وعقائدها وأشهر فرقها المعاصرة	٢٧
١	نشأة الاسماعيلية	٢٨
٢	أصول الاسماعيلية	٣٣
	١- الألوهية	٣٣
	٢- النبوات	٣٦
	١- تناسخ الأرواح	٣٨
٣	أشهر رجال الاسماعيلية المعاصرة	٤٢
٤	أهم فرق الاسماعيلية المعاصرة	٤٤
	١-الدرزو	٤٤
	٢-البهرة	٤٥
	٣-الاغاخانية	٤٦
الخاتمة		٤٨
المراجع		٤٠
الفهرس		٥٤

دلالة التوحيد

في قصة

عيس عليه السلام



أ.د / أحمد عبد الله الطيار

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

تمهيد ومدخل:

مظاهر وحدانية الله – سبحانه – ترى أمام الأعين أناء الليل وأطراف النهار والوجود كله شاهد صدق على هذه الحقيقة .. ولا يمارى فى هذا إلا إنسان أظلمت نفسه وقسا قلبه فلا ينفذ إليه حق ولا يزعن له ..

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

والقرآن الكريم فى عرضه لقصة عيسى – عليه السلام – يوضح هذه الحقيقة حيث يبين أن خَلْقه – أى عيسى – عليه السلام – فريد ، فقد جاء عن طريق نفخ الروح فى أمه الطاهرة العفيفة المتبتلة .

قال الله تعالى « ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» (١)

وهذا على غير عادة الناس فى التوالد الطبيعى ، والتناسل البشرى ، ومن هنا فإن نبى الله – عيسى عليه السلام – ليس له أب من البشر ، وهذا أمر خارق للعادة .

وقد جعله الله تعالى هو وأمه آية .

قال الله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآوينهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» (٢) ودلائل التوحيد فى قصة هذا النبى الكريم كثيرة ..

فمنذ أن حملت به أمه الطاهرة وحتى رفعه الله سبحانه تتوالى الدلائل

---

(١) الآية ١٢ سورة التحريم .

(٢) الآية ٥٠ سورة المؤمنون

وتظهر الخوارق التى تأخذ باللب .

وهذه الدلائل سنتحدث عنها من خلال عرض القرآن الكريم لحياة المسيح – عليه السلام –

قال الله تعالى «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر إلى يؤفكون»(١)

نسب عيسى عليه السلام :

ذكر القرآن الكريم نسب نبى الله عيسى – عليه السلام – بأنه المسيح عيسى بن مريم وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل .. اسمه "عيسى" ولقبه "المسيح" ويكنى «ابن مريم» نسبة إلى أمه مريم ابنة عمران لأنه علية السلام ولد من غير أب .

وهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة وروح منه وهذا النسب الزكى ذكره الحق سبحانه فى قوله «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »(٢)

وهذا الاسم أوحى الله به لأمه مريم قبل أن يولد – عليه السلام – وهذه التسمية جاءت فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .

وجاءت هذه التسميةأيضا – بالكنية – فى حديث رسول الله – صلى الله

(١) الآية ٧٥ سورة المائدة

(٢) الآية ٤٥ سورة آل عمران

عليه وسلم - في صحيح البخارى عن ابن عباس سمع عمر رضى الله عنه يقول على المنبر : سمعت رسول الله صلى لاله عليه وسلم - يقول « لا تُطْرونى كما أطْرتْ النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » (١)

وعلى هذا فما ذكره القرآن العظيم وأخبر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو النسب الحقيقى لنبى الله عيسى - عليه السلام .

على عكس الأناجيل التى ذكرت أنسابا كثيرة مختلفة وليس نسبا واحدا .

فعلى سبيل المثال نجد فى إنجيل لوقا .

«هو يسوع بن يوسف النجار بن هالى بن لاوى بن ملكى .. إلى أن ينتهى النسب إلى يهوذا ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام .

وفى إنجيل متى :

هو يسوع بن يوسف النجار بن يعقوب بن متان .... إلى أن ينتهى إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام .

فإنجيل لوقا يقول : إن يوسف بن هالى .

وإنجيل متى يقول : إن يوسف بن يعقوب .

وإنجيل لوقا يقول : إنه من أولاد ناثان بن داود .

وإنجيل متى يقول : إنه من أولاد سليمان بن داود .

وإنجيل لوقا يقول : إن آباء المسيح غير سلاطين وغير مشهورين .

---

(١) البخارى ٢ / ١٢٥ .

وإنجيل متى يقول : إن آباء المسيح سلاطين مشهورون .

وفى إنجيل لوقا أن بين داود والمسيح واحد وأربعين جيلا .

وفى إنجيل متى إن بين داود والمسيح ستة عشر جيلا . (١)

وأمام هذا الاختلاف الشديد بين الأناجيل فى نسب المسيح يقف الإنسان حائرا .. فلا يدرى كيف يوفق بين هذا التناقض العجيب فى كتاب يُسميه أصحابه مقدسا ويؤمنون به .

ولا ندرى من أين اكتسبت هذه القداسة .. وهذا التناقض الواضح من أوضح الدلائل وأصدق البراهين على أن هذا كله تحريف ولا أساس له .

ولا أدل على ذلك مما جاء فى كتبهم .

فى الفقرة السابعة عشر من الإصحاح الأول من إنجيل متى ما نصه :

«فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلا ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلا ، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلا»

فنسب المسيح من خلال هذا النص يشتمل على ثلاثة مراحل كل منها مشتمل على أربعة عشر جيلا وهذا غلط صريح .

لقد وقع التحريف بكل صوره - التبديل والزيادة والنقصان - فى هذه الكتب. (٢)

(١) النبوة والأنبياء . محمد على الصابونى ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) يراجع هذا بالتفصيل فى كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندى من ص ١٠٦ - ٢١٢

ومن ثم فإن ما تثبته عن المسيح عليه السلام كله محض افتراء وبهتان وصدق الله العظيم « من الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون. يا أهل الكتاب قد جائكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جائكم من الله نور وكتاب مبين» (١)

ولا أريد أن استقصى هذه الأكاذيب .. ولكن حسبى أن ألج فيما قصدت من بيان دلائل التوحيد فى قصة عبد الله ورسوله وكلمته سيدنا عيسى – عليه السلام –

مهتديا فى ذلك بنور القرآن الهادى الذى لا يخبو أبدا فهو الحق الذى لا مرية فيه «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»

مريم الطاهرة ومعجزة الميلاد

السيدة الطاهرة من نسل داود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه ، وكانت أمها من العابدات ، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم .. وقيل زوج خالتها .

وكانت أم مريم – كما يذكر ابن اسحاق وغيره – لا تحمل .. فنذرت إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أى حبيسا فى بيت المقدس .. فحملت بمريم عليها السلام « فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم

(١) الآيتان ١٤ ، ١٥ سورة المائدة

بما وضعت وليس الذكر كالأنثى »(١)

أى فى خدمة بيت المقدس ، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم .

وقولها كما ذكر القرآن الكريم « وإنى سميتها مريم ......

وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»(٢) قد استجيب لها فى هذا كما تُقبل منها نذرها .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن البنى – صلى الله عليه وسلم – قال " ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يُولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم «وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»

وعن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال «كل مولود من بنى أدم يمسه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى»(٣) ونقف أمام هذا الحديث المعجز من ناحيتين .

الأولى : تمنى أم مريم الولد بعد طول اليأس فقد كانت لا تحمل ويتحقق لها ما تحب – وهذا أمر خارق للعادة .

الثانية : استجابة دعائها « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» .

---

(١) الايه ٣٦ سورة آل عمران

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ٢ / ٦٤٥ ، ٦٤٦

(٣) المسند للإمام أحمد ٢ / ٢٨٨

ويتحقق هذا أيضا كما أخبر بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم

فكيف تحقق لها الأمران وهما خارقان للعادة ؟

لا مفر من الاذعان بقدرة الله الذى لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهذا من أصدق الدلائل وأقواها على وحدانية الله . الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى .

كفالة زكريا لمريم :

قال الله تعالى « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفَّلها زكريا » ذكر المفسرون أن أمها حين وضعتها لفتها فى خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به ، .. ثم تنازعوا أيهم يكفلها ، وكان زكريا بينهم فى ذلك الزمان ، وقد أراد أن يستبد بها – أى يستأثر بكفالتها – من أجل زوجته أختها أو خالتها – على القولين – فشاحوه فى ذلك ، وطلبوا أن يقترع معهم فساعدته المقادير ، فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم .(١)

وهذا قول الحق سبحانه وتعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » (٢)

وظلت مريم فى كفالة زكريا – عليه السلام – وقد اتخذ لها مكانا شريفا

---

(١) قصص الأنبياء ٢ / ٦٤٨ وانظر تفسير ابن كثير والطبرى

(٢) الآية ٤٤ سورة آل عمران

فى المسجد لا يَدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت وخدمته ، وتقوم بالعبادة ، حتى صار يُضرب ها المثل فى بنى إسرائيل فى الصلاح والتقى ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة .

وكان إذا دخل عليها زكريا – عليه السلام – يجد أمراً عجيبا ، كان يجد طعاما وفاكهة ليس لها وجود فى ذلك الوقت .

فاكهة الصيف فى الشتاء .. وفاكهة الشتاء فى الصيف .

فيسألها فى دهشة واستغراب « أنى لكِ هذا » ؟ (١)

يصور القرآن العظيم هذا الموقف الخارق المعجز فى قول الحق سبحانه «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لكِ هذا . قالت هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»(٢)

إنه الإعجاز الإلهى – الذى يأخذ بيد الإنسان إلى طريق الحق .

فمن ذا الذى هيأ لمريم وهى فى معبدها الرزق الذى لا ينقطع ؟ وفى غير موعده !! مما جعل زكريا – عليه السلام – يندهش لهذا الأمر ويسأل متعجبا أنى لكِ هذا ؟؟

مريم والاصطفاء :

«إن مريم خير نساء العالمين ، لأنها فريدة وحدها بين كل النساء ، فقد

(١) النبوة والأنبياء ١٨٩

(٢) الآية ٣٧ سورة آل عمران

أمتُحنت بما لم تُمتحن به أنثى وهذه أول امرأة في تاريخ الأديان تقوم بما لا يقدر عليه سوى أولى الفضل من الرجال .. وهذا توجيه من رب العزة سبحانه حتى تكون أماً لرسول كريم من أولى العزم ، تحمَّل الكثير منذ ساعة مولده في بني إسرائيل إلى أن ترك دنيا الناس ، ورفعه الله إليه مكانا عليا » (١)

وهذا الاصطفاء لمريم ذكره الحق سبحانه في قوله « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » (٢)

لقد نشأت على الطهر والعفاف .. وعاشت في جوار بيت المقدس مكلوءة بعناية الله ورعايته ..

وجاء التصريح بخيريتها على نساء العالمين في صحيح الحديث .. وحسبي الإشارة إلى بعضها .

في صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» (٣)

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وآسية إمرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد» (٤)

---

(١) د . طه وادي «أولو العزم من الرسل» ص ١٦٥

(٢) الآية ٤٢ سورة آل عمران

(٣) صحيح البخاري ٢ / ١٧٧

(٤) مسند الإمام أحمد ٣ / ١٣٥ وسنن الترمذي ك المناقب ٣٨٧٨

وفى الصحيحين عن معاوية بن قُرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله علية وسلم - « كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران وأسيةامرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (١)

البشارة بعيسى - عليه السلام -

«اعتكفت مريم كعادتها تصلى لله وتعبده ، فاضطربت نفسها فجأة ، وداخلتها رهبة لم تعهدها من قبل ، وظهر أمامها ملك من السماء ، وقد تمثل لها بشرا سويا لتأنس به ولا تنفر منه ، وحاولت الهروب واستعاذت بالله ، إذ ظنته معتديا أثيما .. وهى التقية المؤمنة العفيفة الطاهرة ، ولكن أعاد إليها طمأنينتها وسكّن روعها ثم أخذ يتحدث إليها قائلا « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا»

فغشيتها سحابة من الحزن ، وطافت بها موجه من الأسى ، ولكن هول الموقف وشدته لم يعقد لسانها ، بل استجمعت شارد قوتها وخرجت من صمتها وحاجّته قائلة :

« أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا»

جلست مريم حائرة تفكر فيما سمعته وأوجست فى نفسها خيفة ، ولا شك أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء ، تحمل وتلد من غير أن يكون لها بعل ، وقد أفزعتها هذه الأفكار ، وصيرتها قلقة مضطربة ، إذ قد بدت

(١) رواه البخارى ٢ / ١٧١ ومسلم ٢ / ٢٧٠

تفطن إلى الريبة التى سوف تخامر قلوب الناس ، والشكوك التى ستخالج نفوسهم .

فأصبحت تحب العزلة وتميل إلى الانفراد ، واستحوذ عليها الحزن ، وغلب عليها الخوف ، وصارت دائمة التفكير فى ذلك السر الرهيب الذى أُغلق عليه داخل أحشائها » (١)

لقد حدث لمريم ما حدث وهى وحيدة فريدة .. وقد قابلها الملك فجأة على صورة بشر وقد خافته واستعاذت بالله منه ، فطمأنها بأنه رسول الله ، وبشرها بعيسى عليه السلام الغلام الزكى ..

ومن حكمة الله سبحانه أن يأتيها الملك فى صورة إنسان وليس على صورته الملائكية .

والسر فى ذلك كما ذكر أبو حيان : «إنما مثل لها الملك فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ، ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها فى الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه .. ودلَّ على عفافها وروعتها أنها تعوذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ، وكانت تَمثُّله على تلك الصفة ابتلاء لها وتبرأً لعفتها » (٢)

ومن هنا أنست مريم بعد الخوف واستبشرت ، ولكنها تعجبت حين بشرها بالغلام ، وهى بكر لم تتزوج فضلا عن لم يمسها رجل ، ولم تقترف إثما

---

(١) محمد جاد المولى . قصص القرآن ٢١١ ، ٢١٢

(٢) أبو حيان . البحر المحيط ٦ / ١٨٠

إنما قدرة الله أحكم الحاكمين ومشيئته .

ويصور القرآن الكريم هذا الموقف في قول الحق سبحانه «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا. قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا» (١)

فقوله سبحانه «ولنجعله آية للناس» أى ولنجعل خَلْقه والحالة هذه دليلا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . «ورحمة منا» أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله فى صغره وكبره ، فى طفولته وكهولته ، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له ، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأصفداد والأنداد .

وقوله «وكان أمرا مقضيا» يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ، يعنى أن هذا أمر قدقضاه الله وحتّمه وقدره وقرره ، وهذا قول محمد ابن اسحاق واختاره ابن جرير .. (٢)

ويحتمل أن يكون قوله «وكان أمرا مقضيا» كناية عن نفخ جبريل فيها كما

(١) الآيات ١٦ - ٢١ سورة مريم

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٦ / ٦٢

قال تعالى « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا »(١)

فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها ، ومن قال إنه نفخ فى فمها أو أن الذى كان بخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يُفهم من سياق هذه القصة فى محالها من القرآن فإن هذا السياق يدل على أن الذى أُرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ... كما قال تعالى «فنفخنا فيه من روحنا» فدلَّ على أن النفخة ولجت- أى دخلت - فيه لا فى فمها » (٢) ولما حملت ضاقت به ذرعا ، وعلمت أن كثيرا من الناس سيكون منهم كلام فى حقها ، وذكر غير واحد من السلف - كما يقول ابن كثير .

أنها لما ظهر عليها مخايل الحمل كان أول من فَطِنَ لذلك رجل من عُبَّاد بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها ، فجعل يتعجب من ذلك عجبا شديدا ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج ، فَعَرَّضَ لها ذات يوم فى الكلام فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بَذْر ؟ قالت : نعم فمن خلق الزرع الأول ؟ ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذَكَرٍ ؟ قالت : نعم :

(١) الآية ١٢ سورة التحريم

(٢) قصص الأنبياء ١٢ / ٦٦١ ، ٦٦٢

إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، قال لها : فأخبريني خبرك ، فقالت : إن الله بشرني «بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين» .

روى عن مجاهد قال : قالت مريم :كنتُ إذا خلوتُ حدثني وكلمني ، وإذا كنتُ بين الناس سبَّح فى بطني» (١)

وصدق الله العظيم « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» (٢)

يقول أبو حيان : «إن العرب تضرب الأمثال لبيان ما خفى معناه ودَقَّ إيضاحه ، ولما خفى سر ولادة عيسى عليه السلام من غير أب لأنه خالف المعروف ، ضرب الله المثل بآدم الذى استقر فى الأذهان وعُلِمَ أنه من غير أب ولا أم كذلك خلق عيسى بلا أب ، ولا بد من مشاركة معنوية بين من ضُرِب به المثل ، وبين من ضُرِب له المثل ولو من وجه واحد أو من وجوه ولا يشترط الاشتراك فى سائر الصفات ، والمعنى الذى وقعت فيه المشاركة بين آدم وعيسى كون كل واحد منهما خلق من غير أب »

وقد فصل بعض أهل العلم المشاركة بين آدم وعيسى فى بضعة عشر وصفا . فى التكوين ، وفى الخلق من العناصر التى ركب الله منها الأشياء وفى العبودية . وفى المحنة – عيسى باليهود وآدم بأبليس وفى

(١) المصدر السابق ٢ / ٦٦٣

(٢) الآية ٥٩: سورة آل عمران .

أكلهما الطعام وفى الفقر إلى الله . وفى الصورة وفى العلم حيث قال فى حق آدم «وعلم آدم الأسماء كلها» وفى حق عيسى «ونعلمه الكتاب والحكمة» وفى نفخ الروح فيهما «فنفخت فيه من روحى» «فنفخنا فيه من روحنا» وفى الموت وفى فَقْدِ الأب فهما نظيران فى أن كلا منهما أوجده الله خارجا عما استقر واستمر فى العادة .. من خلق الإنسان متوالدا من ذكر وأنثى .. والوجود من غير أب ولا أم أغرب فى العادة من الوجود من غير أبٍ فشبه الغريب بالأعزب ليكون أقطع للخصم لمادة شبهته . إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه » (١)

ميلاد المسيح وموقف مريم - عليهما السلام

تمت إرادة الله سبحانه وحملت مريم .. وحين قَرُبَ وقت المخاض والميلاد اعتزلت الناس وذهبت وحدها فى مكان قصى (٢) حتى لا يراها أحد ، وآوت إلى جذع نخلة فى مكان قَفْرٍ لا طعام فيه ولا ماء ، ولكن الله سبحانه لا يتخلى عن عباده المكرمين فجاءها النداء من قبل الخالق القدير أن هُزى جذع النخلة وأنت فى مكانك ، وسوف تتساقط عليك رطبا جنيا (٣) كما أجرى الله سبحانه نبع ماء يسرى بجوارها ، حتى تأكل وتشرب وتطمئن نفسها ، كما طلب منها ألا تكلم أحدا .. وتقول لمن يحاول الكلام معها « إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا »

---

(١) أنظر البحر المحيط لأبى حيان ٢ / ٤٧٧ ، ٤٧٨ وكذا روح المعانى للألوسى ٣ / ١٩٢

(٢) بعيد

(٣) بلحا حلوا

فبعض الصوم يتمثل فى السكوت عن محادثة البشر .. والاشتغال بذكر الله وتدبر آيات قدرته .

وقد كانت تلك المعجزة - جريان الماء وإسقاط الرطب - أقوى دليل على براءتها وأسطع برهان على طُهرها ، وقد كانت آية بينة ترد بها قذف القاذفين ، وعيب العائبين ، وتدفع بها التهمة ، وتقيم بها الحجة على من يحاجونها فى هذا المكان الذى أجاءها المخاض إليه ، وهى تريد الجواب الذى تجيب به لُوّامها والعائبين عليها ، والمعيرين لها «وهم الذين سيستقبلونها بألسنة حداد ، لذلك لم تتبدد مخاوفها ، ولم تنقشع سحابةُ حزنها .(١)

وأمام هذه الحيرة الشديدة .. فى هذا الموقف العصيب يتوجه القوم بألسنة اللوم « يا أخت هارون ما كان أبوك إمرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا»

وهنا تتحقق براءة الطاهرة العفيفة ويتحقق الإعجاز .. وذلك من أقوى الدلائل وأنصع البراهين على واحدانية الله سبحانه وقدرته . لقد أنطق الله لسان الصغير .. وأطلق الصوت .. وحرك الشفاه التى لم تهتد إلى موضع الأثداء .. التفت الغلام موجها الخطاب إلى القوم فى وضوح وبيان «قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام على يوم وُلدتُ ويوم أموت ويوم أُبعث حيا»

---

(١) قصص القرآن ٢١٤ إولو العزم من الرسل ص ١٦٦

«وهذا أول كلام تفوه به عيسى بن مريم - عليه السلام - فكان أول ما تكلم به «إنى عبد الله» اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربه ، فنزه جنا الله عن قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله «آتانى الكتاب وجعلنى نبيا» فإن الله لا يعطى النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم . كما قال تعالى «وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما» (١)

وذلك أن طائفة من اليهود - لعنهم الله - قالوا إنها حملت به من زنا فى زمن الحيض ، فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها صديقة ، واتخذ ولدها نبيا مرسلا أحد أولى العزم الخمسة » (٢)

فهل هناك دليل بعد هذا يمحق باطلهم .. أو برهان يبين كذبهم..

ألم ينطقه الله بالحكمة ؟ ويعده للنبوة وهو لم يزل فى المهد صبيا، وفى حجر أمه طفلا ؟

قد كان هذا آية على براءتها ، ومعجزة دالة على طهرها . إذ القدرة التى أنطقته بالحكمة فى هذه السن لا تعجز عن خلق مثله من غير أب ، فبكلمة منه سبحانه خلق ، فليكفوا إذن عن لومهم ،وليتجنبوا الخوض فى عرضها وإشعال الفتنة حولها ..

(وهذه بواكير آيات المسيح - عليه السلام - وسر أسرارالنبوة فيه فصلها

(١) الآية ١٥٦ سورة النساء.

(٢) ابن كثير . قصص الأنبياء ٢ / ٦٦٨

القرآن وبينها .

فبماذا نطق ولمّا يزل حديث عهد بالولادة ؟

نطق بأنه – أولا – عبد الله ، وفى هذا ما يثير الانتباه ، ويشد الرأى إلى عقيدة القوم ، فلم يقل إنى إله أو ابن إله : ولكنه قال : إنى عبد الله .

وهذا ما نطق به الوليد وكان نص القرآن صريحا وأشار مدلوله مصححاً ما شاع خطأً بفضل الوضاعين فى الإنجيل فيما بعد ..

كذلك قال المسيح – عليه السلام – آتانى الكتاب مشيرا إلى الإنجيل فيما بعد وأنه سيكون رسولا نبيا من أولى العزم ، وممن اختصهم الله بالكتاب ، وقال ثالثا «وجعلنى نبيا» وهو عجيب فى مثل سنه .. وقال كذلك «وجعلنى مباركا أينما كنت» وحقا : كان دليل بركة على قومه إذ جعل الله البركة تجرى على يديه أنى سار ، وفى أى مكان حلّ .

فهل كان فى مثل سنه يوحى إليه ؟ أو يعى شيئا من الوصاية حتى يخبر بهذا ؟

لكنه سر النبوة فى بدء العمر ، أخبر به المسيح – عليه السلام – إذ أنطقه الله بهذه الحقائق التى تجلت فيما بعد(٢)

أخذت المعجزات تترى وتتوالى لتؤكد على الملأ الحقيقة الساطعة المتمثلة فى وحدانية الله رب العالمين .

ولعل السر فى ذلك – والله أعلم – أنه – عليه السلام – أرسل إلى بنى

---

(١) حسن إسماعيل ، من أسرار النبوات فى القرآن الكريم ٢٠٨ ، ٢٠٩

إسرائيل وهم - كعادتهم - قساة القلوب مغلقوا الأفئدة .. عندهم قدرة على الجدل ولاحوار ويصعب - إن لم يستحلْ - أن تحولهم عن رأى أو تثنيهم عن خصومة ، إذ يتوهمون أنهم «شعب الله المختار» لذلك يظنون أنهم يجب أن يُتبعوا ، لا أن يتبعوا هم غيرهم فى أى شأن من شئون الحياة ، وربما كان هذا سببا فى مخالفتهم المسيح وعصيانه ، وإنزال أشد العذاب به وبمن آمن معه » (١)

دعاوى النصارى فى المسيح

بلغ الضلال والإسفاف بالنصارى أبعد مدى .. حين قالوا إن المسيح هو الله أو ابن الله ..

وأن الإله عندهم مكون من ثلاثة أقاليم هى الأب والابن والروح القدس وأن هذه الثلاثة تكون فى مجموعها شيئا واحدا هو الله الذى يدين له الكل . فهو موجود بذاته ناطق بكلمته - أى ابنه - حى بروحه . وكل عنصر من هذه العناصر التى تكوّن منها الإله يعطيه وصفا معينا . فإذ تجلى بصفته سُمى الأب ، وإذا نطق فهو الابن ، وإذا ظهر كحياة فهو الروح القدس .

فهل هو إله واحد مقسم إلى ثلاثة آلهة أم هو ثلاثة آلهة مستقلة أم هو إله وثلاثة من جهة أخرى ؟؟

يجيب أحدهم على هذا بقوله(٢) « الله واحد وثالوث فهو واحد من جهة وثالوث من جهة أخرى ، فكما أن الإنسان واحدٌ فى مظهره وفى الوقت

(٢) أولو العزم من الرسل ص ١٧٠

(١) عوض سمعان الله بين الفلسفة والمسيحية ص ٩٧

نفسه هو جوهري مكون من ثلاثة عناصر هي الجسد والنفس والروح ، كذلك الله ، فهو واحد من جهة وجامع أو شامل من جهة أخرى دون أي تعارض أو تناقض في ذاته ، فالله واحد من جهة الجوهر ، أو الباطن و هو جامع من جهة التعيين أو الظاهرية ، وجوهر الله يُسمى «اللاهوت» أي الله في جوهره ، وهذا الجوهر نفسه بالنظر إلى تعيينه وظهوره هو «الله» فالله هو اللاهوت معينا ، واللاهوت هو الله جوهرا .

أي أن الله هو اللاهوت ظاهرا ، واللاهوت هو الله مستترا به ، واللاهوت واحد لأن جوهر الله هو عين تعيينه ، وتعنيه هو عين جوهره !

ويستطرد قائلا :

إن الله ليس تعينا واحدا ، بل تعينات فذات الله تعينات ، وكل تعين من هذه التعينات ليس جزءا من ذات الله ، بل هو عين ذاته . أي هو ذات الله نفسها بكل خصائصها وصفاتها الذاتية ، ولذلك يكون كل تعين من هذه التعينات هو الله ، وهذه التعينات تسمى الأقانيم ، فالأقانيم هي تعينات اللاهوت ، أو هم اللاهوت معنيا ،أي اللاهوت معلنا في ذاته وصفاته.(١)

وهو بهذا يقرر ما يلي .

إن الله رغم إعلانه لنا أنه واحد إلا أنه في حقيقته وباطنه مكون من ثلاثة أجزاء ، وكل جزء أو تعيين من هذه الأجزاء والتعينات هو إله كامل ، ويقرر أنه بعد فحصه وتشريحه لدواخل الذات الإلهية وبعد كشفه الحجب

(١) المصدر السابق ٩٨ .

والأستار عن مكنونات الله ، تبين له أنه ليس واحداً بل ثلاثة ، والله رغم ظهوره للناس على أنه واحد إلا أنه فى حقيقته وداخليته ثلاثة آلهة ، فهو واحد من جهة وثلاثة من جهة أخرى ، واحد فى الظاهر وثلاثة فى الباطن .

وهذا المنطق يجعلنا نعتقد أن الله يظهر لنا غير ما يبطن ، فهو يظهر للبشر بمظهر لا يعبر عن حقيقته وداخله ، تلك الحقيقة التى تقرر أنه سبحانه مكون من ثلاثة آلهة ، تلك الحقيقة التى استطاع الكاتب – "سمعان" – أن يصل إليها وحده ، والتى لم يتوصل إليها قبله أحد من العالمين ، إلا من ساروا على دربه واتبعوا نهجه من المتفلسفين والمتفيهقين» (١)

لكن !!

لماذا أطلقوا على الله الموجود لفظ الآب ؟ وعلى الله الناطق لفظ الابن ؟ وعلى الله الحى لفظ الروح القدس ؟؟

يجيب أحدهم عن هذا بقوله :

إن الذات والد للنطق فيقال له الآب

والنطق مولود من الذات فيقال له الابن .

والحياة منبعثة من الذات فيقال لهاالروح القدس .

فالله الآب قائم بذاته ، ناطق بخاصية الابن الذى هو النطق ، حى

(١) محمد مرجان «الله واحد أم ثالوث» ص ٢٤

بخاصية الحياة التى هى الروح القدس .

والله الابن قائم بخاصية الذات التى هى الآب ، وناطق بخاصيته هو ، حى بخاصية الحياة التى هى الروح القدس .

والله الروح القدس قائم بخاصية الذات التى هى الآب ، ناطق بخاصية النطق الذى هو الابن ، حى بخاصيته هوالتى هى الحياة .(١)

ويرى أحدهم رأيا أخر يختلف تماما عن رأى صاحبه السابق . فيقرر « إن تسمية الثالوث باسم الآب والابن والروح القدس تعتبر أعماقا إلهية وأسراراً سماوية لا يجوز أن نتفلسف فى تفكيكها وتحليلها أو نلحق بها أفكارا من عندنا .. (٢)

وثم اتجاه ثالث يختلف عن السابقين يقرر صاحبه .

أن الأقانيم الثلاثة ليست مجرد أسماء تطلق علي الله ، أو مجرد صفات يُنعت بها ، بل هى ثلاث شخصيات متميزة غير منفصلة متساوية فائقة عن التصور .(٣)

وهكذا نرى الاختلاف واضحا – فلم يتفقوا على إجابة ، بل كل واحد منهم يرى عير ما يراه صاحبه ، ولم يقدم أحدهم جوابا شافيا حاسما يقنع المتسائلين .. عن علة إطلاق لفظ الآب على الله الموجود ، والابن على الله الناطق ، والروح القدس على الله الحى .

(١) انظر «الله واحد أم ثالوث» ص ١١

(٢) القس توفيق جيد «سر الأزل» ص ٥٩

(٣) يس منصور «رسالة التثليث» ١٥٦

وهذا الكلام كله تلفيقات فلسفية وأفكار عقيمة قدتستعصى على الأفهام ..

ويقرر النصارى بأن المسيح يدعى اسمه كلمة الله :

ورد فى انجيل يوحنا ص ١ عدد ١ : (وكان الكلمة الله)

وورد فى رؤيا يوحنا عن المسيح ص ١٩ عدد ١٣ : (يدعى اسمه كلمة الله)

لذلك فهم يقولون : إن المسيح ليس مخلوقا أو ملاكا دون الآب ، ولكنه مساوٍ له فى الجوهر ، والآب معناها الله .

ويرد على ذلك :

إن الكلمة المشار إليها هى كلمة التكون لا كلمة الوحى .

ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الله تعالى ، ما يعلو عقول البشر عبَّر عنه كتبة الأسفار بقولهم :

(لأنه قال فكان هو أمر فصار) مزمور ٣٣ عدد ٦

فكلمة قال ، وكلمة أمر ، هى كلمة التكوين ، وهو ما ورد بسفر التكوين (وقال الله ليكن نور فكان نور) ص ١ عدد ٣

فكلمة ليكن هى كلمة التكوين .

وإطلاق عبارة الكلمة على المسيح – عليه السلام – لمريد إيضاحه لكلام الله الذى حرفه قومه من اليهود حتى أخرجوه عن وجهه ، وجعلوا الدين ماديا لا روحانيا . وتوضيح ذلك .

أ – أن هذا من قبيل الوصف فيوصف السلطان العادل بأنه «ظل الله أو نور الله» لعدله وإحسانه .

ب – هذا من قبيل قولهم «فلان لسان الملك – أو كلمة الملك» يريدون بذلك أنه سبب لظهور كلامه إلى الرعية .

فكذلك المسيح – عليه السلام – كان سببا لظهور كلام الله تعالى بسبب ما كان يلقيه من مواعظ وبيانات تزيل الشبهات والتحريفات عنه ، وإبطال التقاليد حتى يرجع بقومه إلى المفاهيم السليمة لكلام الله عز وجل .

جـ – وهناك وجه آخر لإطلاق «كلمة» على المسيح وذلك للإشارة إلى ما جاء بكلام الأنبياء عنه وبشارتهم به .

* في سفر أرميا ص ٣٣ عدد ١٤ – ١٦

«ها أيام تأتى يقول الرب : وأقيم الكلمة الصالحة التى تكلمت بها إلى بيت إسرائيل وإلى بيت يهوذا في تلك الأيام ، وفى ذلك الزمان أنبت لداود غصن البر ، فيجرى عدلا وبرا فى الأرض ، في تلك الأيام يخلص يهوذا ، وتسكن أورشليم آمنة ، وهذا ما نسمى به الربُّ برُّنا»

فإذا كان فى الأسفار القديمة يباح إطلاق لفظ الله على كل من الملاك والقاضى الشرعي والشريف أو القوى .. فهل يسوغ القول أن إطلاق لفظ الله على المسيح يقتضى اتحاده به ومساواته ؟ لو كان الأمر كذلك لكان كل من الملاك والقاضى والشريف والقوى متحدا مع الله ومساويا له ، ولم

يقل أحد بذلك – على الإطلاق – لبطلانه ، لذلك كان القول باتحاد المسيح بالله ومساواته باطل » (١)

ويستدل رجال النصرانية بأن الآب (أى الله) والابن (أى المسيح) واحد فى الجوهر والمجد والمقام بالآتى :

ما ورد فى انجيل يوحنا ص ٢٠ عدد ٣٠ من قول منسوب للمسيح هو (أنا والآب واحد)

وفى إنجيل يوحنا أيضا ص ١٧ عدد ١١ قول منسوب للمسيح

(أيها الآب القدوس احفظهم فى اسمك الذى أعطيتنى ، ليكونوا واحد كما أننا نحن واحد)

والقول المنقول عن المسيح ينقض جزء آخر مكملاً له ولا يتمالمعنى إلا به ، وقوله أن والآب واحد ، يقصد به فى إرادة الخير والهداية لهؤلاء الخراف ... حيث إن المسيح قوى بربه عز وجل وهذا هو المعنى الذى يرمى إليه المسيح فى كلامه المذكور . (٢)

لقد حاول دعاة التثليث ايجاد التبريرات لتلك العقيدة الباطلة فى جملتها وتفصيلاتها بعدة مبررات منها ما ذكره القس بولس إلياس «من الناس من يقولون : لم يا ترى إله واحد فى ثلاثة أقانيم ؟أوليس من الأفضل أن يقال الله واحد . فحسب ؟ ويرد قائلا : لكننا إذا اطلعنا على كنه الله لا

(١) محمد عزت الطهطاوى «النصرانية فى الميزان» ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) النصرانية فى الميزان ص ١٦١

يسعنا إلا القول بالتثليث ؟ وكنه الله محبة ، ولا يمكن أن يكون محبة ليكون سعيدا ، فالمحبة هي مصدر سعادة الله والمحبة تفترض شخصين على الأقل يتحابان وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما بحيث يندفع المحب إلى هبة الذات لمن يحب ، هبة تكون فيها سعادتهما ، فليكون الله سعيدا كان عليه أن يهب ذاته شخصا آخر يجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، ويكون بالتالى صورة ناطقة له ولهذا ولد الله الابن منذ الأزل نتيجة لحبه إياه ووهبه ذاته ووجد فيه سعادته منتهى رغباته وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الآب والابن كانت الروح القدس .

وقس آخر يجارى زميله فى هذا التبرير الباهت ويقرر

أن الوحدانية دون الثالوث تجعل الله فى الأزل بدون موضوع المحبة ، فالواحد من كل وجه لايقدر أن يحب غير نفسه ، وبعبارة أخرى ، بدون الثالوث أو بالأحرى بدون التمييز الأقنومى لا يبقى لله فى أزليته سوى ذاته ليحبها ، وتنزيها لله عن محبة الذات ، وقد وجد الثالوث حتى تتجه محبة الأقنوم الإلهى نحو الأقنوم الآخر » (١)

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون»

أسس تأهلية المسيح :

يرى علماء النصارى وقساوستها أن عقيدتهم فى المسيح – عليه السلام – قامت على أسس ثابتة نذكر منها ما يلى :

(١) الله واحد أم ثالوث ص ١٧ ، ١٨ .

أولاً : كان ميلاد المسيح معجزة ، فهو لم يخرج من بين أب وأم كسائر الناس ، بل من العذراء خرج ، دونما أب حتى يظل طاهرا من الخطيئة التى ورثها آدم لأبنائه جيلا بعد جيل ، فلو لم يكن إله من إله ما وقع له ذلك الميلاد المعجز الذى لم يحظ به أحد من الناس أجمعين ، وكيف يتأتى مثل هذا لواحد من البشر وهو لا يكون إلا لإله ؟

ثانياً : الباحث فى حياة المسيح على الأرض يجد أنها حياة طاهرة بريئة من الخطأ والزلل بعيدة عن الدنايا والرذائل ، وذلك لا يكون إلا لشخص إلهى ، لم يأت إلى الأرض ليعيش عليها كما يعيش سائر الناس ، بل جاء من قبل أبيه ليخلص العالم ويطهره من الخطيئة الكبرى التى دنسته أمدا طويلا من الزمان .

ثالثا : كان المسيح عالما بكل شئ علما دقيقا مفصلا ، وهذا لا يكون إلا من إله فالمسيح إذن هو الله .

رابعاً : من صفات الله أن يكون موجودا فى كل مكان ، وقد أعلن المسيح بكلمات صريحة عن وجوده فى كل مكان ، وترنم داود قديما بقوله عن المسيح : أين أذهب من روحك ، ومن وجهك أين أهرب ؟ إن صعدت إلى السماوات فأنت هناك ، وإن فرشت فى الهاوية فها أنت ، إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحار فهناك أيضا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك . (مز ١٣٩ : ٧ -- ١٠) فهل يكون المسيح بعد ذلك إلا إله ؟

خامسا : أعلنت الأفلاك في مداراتها والنجوم في أبراجها منذ أمد طويل عن مجئ ابن الله إلى الأرض مخلصا وفاديا ، وموته على الصليب ثم قيامته بعد دفنه وصعوده بعد ذلك وجلوسه عن يمين أبيه في السماء ، فبرج العذراء يتحدث عن ميلاد المسيح من عذراء ، برج الميزان يرينا أن البشر قد وزنوا بالموازين فوجدوا ناقصين ، .. وبرج العقرب يرينا الحية القديمة التى سممت حياة الإنسان بالخطيئة ، وبرج القوس يرينا المسيح الظافر المنتصر الذى سحق رأس الحية ، بموته على الصليب كما نقرأ فى لاويين ٩ : ٣ وبرج الدلو يتحدث عن المسيح ينبوع الماء الحى كما نقرأ فى يوحنا ٤ : ١٤ و ٧ : ٣٧ – ٣٩ ورؤ ٢٢ : ١٧ ... وأخيرا برج الأسد الذى يرينا النصرة النهائية للمسيح فى نقرأ فى الكلمات هوذا قد غلب الأسد الذى من سبط يهوذا أصل داود ليفتح السطر ويفك ختومه السبع رؤ ٥ : ٥ وسيأتى اليوم القريب الذى نسمع فيه الهتاف الجميل «قد سارت ممالك العالم لربنا ومسيحه فسيملك إلى أبد الآبدين» رؤ ١١ : ١٥ وإنك لتلمح ذلك واضحا فى الآيات الأولى من سفر التكوين حيث نقول ما نصه :«وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون الآيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوار فى جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك . فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم ، وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة » تكوين ١ : ١٤ – ١٨ فإن كلمة آيات الواردة في النص السابق قد جاءت

فى العبرية بمعنى «الآتى» وكلمة أوقات تعنى فى العبرية « أوقات معينة» . فالنص إذن يتحدث عن شخص سيأتى فى وقت معين ، وما إن جاء حينه حتى ظهر للمجوس فى المشرق نجمة فجاءوا يبحثون عن الوليد ليسجدوا له كما أخبر بذلك متى فى إنجيله .

وترنم داود قديما بتلك النبوءات الفلكية عن نزول ابن الله ومجده إلى الأرض وتخليصه للعالم ثم عودته إلى أبيه مز ١٩ : ١ ، ٢ فإذا كانت النجوم فى بروجها والأفلاك فى مداراتها تتحدث عن المسيح وداود يترنم بذلك فى مزاميره فكيف يكون المسيح إذن مجرد إنسان ؟ إنه الله الابن المسيطر على الكون «حامل كل الأشياء بكلمة قدرته» عب ١ : ٣ على أساس إعلانات الفلك والنجوم عن المسيح آمنا بأنه الله ، إذ الفلك لم يتحدث قط بهذه الصورة الرائعة عن كائن من بنى الإنسان .

سادسا : ما امتاز به المسيح من القدرات الخارقة على فعل المعجزات التى لم يجر مثلها على يد الأنبياء من قبله يجعل كل إنسان يؤمن إيمانا عميقا بأن المسيح هو الله ، ولا يقال كان للأنبياء السابقين معجزات أجراها الله على أيديهم تصديقا لهم فى دعوى النبوة ولم يصيروا بها آلهة فما بال عيسى قد صيرته معجزاته إلهاً ؟ لا يقال هذا لأن الفرق بين معجزات الأنبياء ومعجزات عيسى كبير ، فمعجزات الأنبياء لم تأتهم بقدرتهم الشخصية وإنما أتتهم من الله .

أما عيسى فإنه لما كان إلها كانت كل معجزاته – من إسكات البحر والرياح ، إلى شفائه المرضى والعميان – نابعة من قدرته الشخصية

الإلهية لهذا قلنا إن قدرة عيسى على المعجزات هى إحدى الأسس التى يبنى عليها الإيمان بأن عيسى هو الله .

سابعاً : ما صرحت به الأناجيل من أن المسيح هو الله وهو ابن الله الحبيب ، يدل دلالة قاطعة على أنه لا فرق بين الآب والابن ، وأن المسيح هو الله لا محالة الأمر الذى يجعل الإيمان بمثل ذلك أمرا حتميا لا شك فيه .

من تلك النصوص ما جاء فى إنجيل متى عن الله من قوله «هذا ابنى الحبيب به سُررت» ٣ : ١٧ .

وما جاء فى إنجيل يوحنا من قوله فى وصف المسيح «فى البدء كان الكلمة ، والكلمة عند الله ، وكان الكلمة الله كل شئ به كان وبغيره لم يكن شئ مما كان .. والكلمة صار جسدا ، وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً ١ ، ٣ ، ١٤ .

وما جاء فى يوحنا أيضا من قوله «أنا هو القيامة والحياة ، من آمن بى ولو مات فسيحيا وكل من كان حيا وآمن بى فلن يموت إلى الأبد» ١١ : ٢٥ إلى آخر ما جاء فى الأناجيل صراحة من كون المسيح هو الله وابنه الحبيب ، فكيف يحيد أحد عن الإيمان بألوهية المسيح ، ويقول بغير ذلك» (١)

---

(١) القس لبيب ميخائيل «هل المسيح هو الله» ص ٥٢ وما بعدها
وهذا خلاصة ما ذكره من الأسس التى ذكرها لإثبات ألوهية المسيح .

• الرد على هذه المزاعم الباطلة :

دأب كثير من النصارى على ترديد هذه الحجج الواهية محاولين إثبات ألوهية عيسى – عليه السلام –

ومن أكبر الحجج التى يتمسكون بها الطريقة التى خُلق بها المسيح ، والمعجزات التى أيده الله بها .

«فخلقه بدون أب ، وإحياؤه الموتى – بإذن الله – وإشفاؤه للمرضى من الأمراض المستعصية دليل على أنه يملك صفات الألوهية – فى زعمهم وكلها أقوال متهافتة واهية ، والعقل والمنطق يدحض ذلك . ويرد عليه بسهولة من عدة جهات :

أولاً : إن خلق عيسى بدون أب ليس أمرا مستغرب في جانب القدرة الإلهية فقد خلق الله آدم – عليه السلام – بدون أب أو أم مما يجعل خلق آدم فى درجة أصعب حسب مقياس النصارى ، وأرقى ألوهية حسب فهمهم الخاطئ وقد خلق الله أمنا حواء بدون أم وهذه درجة أصعب وأعقد فى مقاييسنا البشرية من الخلق بدون أب .. والقرآن الكريم يذكر لنا أيضا حوار سيدنا إبراهيم – عليه السلام – مع ربه عندما أراد أن يطمئن قلبه ، فسأل إبراهيم ربه أن يريد كيف يحيى الموتى ، وقد استجاب الله لنبيه إبراهيم وأراه وعلمه كيف يحدث ذلك عندما أمره أن يأخذ أربعة من الطير ، ويصرهن إليه ويجعل على كل جبل منهن جزءا ثم

يدعوهن فيرجعن إليه جميعا أحياء (١) ويصور القرآن الكريم هذا الموقف فى قول الله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم» (٢)

فهل هذا الأمر يعتبر ألوهية لإبراهيم – عليه السلام – ، وهل زعم زاعم من قبل أن هذه من صفات الإله ولا يفعلها إلا إله .. فسيدنا إبراهيم على هذا المقياس – إذن – إله .

وكذا نبى الله موسى – عليه السلام – عندما أحيا الميت المقتول ليعترف على قاتله ، فهل يعتبر موسى إلها ؟؟ حاشا وكلا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، إن حكمة الله سبحانه ترينا عظيم قدرته فى تنوع خلقه مرة من لا شئ لا أب ولا أم .. أو من أب فقط دون أم .. أو من أم بلا أب .. وسائر البشر من توالد طبيعى بأب وأم .

ومن هنا فخلق عيسى ليس أمرا مستغربا أو صعبا عجيبا عند الله سبحانه وهو الذى يحيى العظام وهى رميم ، ويجعل من الشجر الأخضر نارا » (٣)

ثانياً أن هذه الأقانيم المختلفة فى عملها يؤدى إلى انقسامها وتنازعها

(١) د . طلعت غنام «أضواء على النصرانية» ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) الآية ٢٦٠ سورة البقرة

(٣) انظر أضواء على النصرانية ٢٨

وإلى تناحرها ، وفى خضم هذا الصراع يفسد الكون ، وتفنى الموجودات، ويحل الدمار .

إن كل هيئة أو منظمة أو مؤسسة فى الوجود ليس لها سوى رئيس واحد أو قائد فالدولةرئيسها واحد والطائرة قائدها واحد ، والسفينة إذا قادها إثنان غرقت .. والوحدانية هى طبيعة النظام ، فلا يقبل العقل أن يتحكم فى الكون أكثر من قوة واحدة ، فإذا أمعنا النظر فيما يحيط بنا ولاحظنا الكائنات والموجودات المتجانسة ، وتأملنا الأرض التى نعيش فوقها وكيمية دورانها حول نفسها ، ودورانها فى نفس الوقت حول الشمس فى دقة وإحكام ، ثم تعاقب الفصول فى دورية وثبات ، وحركات الكواكب والنجوم والمجرات ، تدور فى نظام محكم حول بعضها وحول نفسها بسرعة فائقة فلا تنحرف ولا تتصادم .. إذا تأملنا بعضا من ذلك لأيقنا أن هذا الكون العظيم خاضع لمبدأ واحد سنته مدبر واحد ، فلو تعدد خالق الكون ومدبره لوجد التناقض وعدم الإتفاق ، ولحلت الفوضى محل النظام ، ولتنازع الآلهة والأقانيم ، ولفسدت الأرض والسموات ، ولهلكت الكائنات والموجودات ، ولتلاشى الكون والوجود .. »(١)

وحول هذه القضية يذكر الشيخ – رحمة الله الهندى .

أنه تنصر ثلاثة أشخاص وعلمهم أحد القسيسين العقائد الضرورية سيما عقيدة التثليث ، وكانوا فى خدمته فجاء محب من أحباء هذا القسيس

(١) محمد مرجان «الله واحد أم ثالوث» ص ٦٦ ، ٦٧

وسأله عمن تنصر ؟ فقال ثلاثة أشخاص تنصروا ، فسأل هذا المحب هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية ؟ فقال نعم ، وطلب واحدا منهم ليرى محبة فسأله عن عقيدة التثليث ، فقال : إنك علمتنى أن الآلهة ثلاثة ، أحدهم الذى هو في السماء ، والثانى تولد من بطن مريم العذراء ، والثالث الذى نزل فى صورة الحمام على الإله الثانى بعد ما صار ابن ثلاثين سنة ، فغضب القسيس وطرده ، وقال : هذا مجهول ، ثم طلب الآخر منهم وسأله فقال : إنك علمتنى أن الآلهة كانوا ثلاثة وصُلب واحدٌ منهم فالباقي إلهين ، فغضب عليه القسيس أيضا وطرده ، ثم طلب الثالث وكان ذكيا بالنسبة للأولين وحريصا فى حفظ العقائد ، فسأله فقال حفظت ما علمتنى حفظا جيدا ، وفهمت فهما كاملا بفضل الرب المسيح أن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحد ، وطلب واحد منهم مات فمات الكل لأجل الاتحاد ، ولا إله الآن ، وإلا يلزم نفى الاتحاد .

يُعلق الشيخ – رحمه الله – عن هذه القصة بقوله :

« لا تقصير للمسئولين فإن هذه العقيدة يخبط فيها الجهلاء هكذا ، ويتحير علماؤهم ، ويعترفون بأنا نعتقد ولا نفهم ، ويعجزون عن تصويرها وبيانها »[(١)]

وهذه الحقيقة كما يذكر الأستاذ محمد مرجان أدركها أساقفة الثالوث أنفسهم وكبار أحبار وفلاسفة المسيحية ، فهم رغم إضطرارهم بحكم

(١) إظهار الحق ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

الظروف إلى الدفاع عن عقيدة الثالوث ومحاولة تبريرها للعامة والبسطاء فإنهم يشعرون فى أعماقهم بمجافاتها للعقل والمنطق ، وبيعدها عن الحق والصواب ، إننا نجد هؤلاء الأحبار والفلاسفة كثيرا ما يعترفون بهذا الواقع رغم كافة الظروف ، بعضهم يعترف في صراحة والبعض يقرر فى وجل ، مستجيبين لصرخات عقولهم التى فُطرت على التوحيد فلم تستطع هضم التثليث .

يقول القس توفيق جيد : «إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه ، وإن من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها فى كفه »

ويقرر غيره «أن من الصعب أن نحاول فهم هذا الأمر بعقولنا القاصرة»

ويقول عوض سمعان فى صراحة : «إننا لا ننكر أن التثليث يفوق العقل والإدراك ، ولكنه يتوافق مع كمال الله كل التوافق .. ولقد حاول كثيرون من رجال الفلسفة توضيح إعلانات الكتاب المقدس عن ذات الله ، أو بالأحرى عن ثالوث وحدانيته فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، لأنهم انحرفوا عن أقواله واعتمدوا على قولهم وحدها »

والأمر يدعو للحيرة ، تُرى إذا كان الفلاسفة والعلماء قد عجزوا عن فهم هذا الثالوث فمن يا تُرى يستطيع فهمه ؟ وما هو موقف البسطاء والعامة إذا ما حاولوا الفهم ، وإذا لم نستطع إدراك عقائدنا الدينية بعقولنا وأنها منا فبماذا يا ترى يمكننا إدراكها ؟

هل يطلب منا دعاة التثليث أن نتخلى عن عقولنا ، ونسلم بالثالوث ، وإذا كنا جميعا نحن وهم لا ندرك هذا الثالوث ، فكيف يمكن لأى منا أن يتبعه أو يسير عليه ؟

وهكذا يبين لنا مدى مجافاة عقيدة الثالوث لأبسط قواعد العقل والمنطق والحساب ومدى بعدها عن الواقع والحق والصواب ، ولقد قمت – أى الأستاذ مرجان – بمناقشة كثير من المسيحين عن مدى فهمهم وتقبلهم لهذه العقيدة ، تارة حين كنتُ محسوبا فى الجماعة المسيحية ، وتارة بعد انسلاخى عنها وكثيرا ... فأخبرونى أنهم لا يستطيعون فهم كنة الثالوث المقدس ، وأن كثيرين منهم يعيشون فى صراع بين عقولهم وموروث معتقداتهم ، وحين تناقشت فى ذلك مع بعض الآباء الكهنة أخبرونى أنه يجب الإيمان بالثالوث دون أى تمحيص أو تفكير ، وأنه يلزم التسليم بهذا الاعتقاد الثالوثى تسليما مطلقا أو تسليما أعمى فعلى المسيحى أن يؤمن ويعتقد أولا فى الثالوث المقدس ، ثم يمكنه أن يجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتق ، فإذا لم يفلح فى ذلك فإنه خير له أن يلغى عقله ولا يلغى عقائد الآباء وتراث الأجداد ، وتعاليم القساوسة ..

والحقيقة أن هذا الذى يدعو إليه الآباء والكهنة ، ويبغون قسرنا عليه شئ عجيب ، فكيف يستطيع الإنسان منا أن يلغى عقله الذى لا يعيش إلا بهديه والى يفضله على العيش نفسه ، إن المسيحى فى محاولته فهم عقيدة الثالوث إنما يصارع كل عقل وفكر ومنطق ، وفى خضم هذا

الصراع بين منطق عقله وموروث اعتقاده قد يصل به الأمر إلى الإلحاد ، وهذا ما وصل إليه الكثيرون فعلا للأسف المرير .. » (١)

وفي مقالة للدكتور وولتر أوسكار لندبرج يقول فيها :

إن جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله على صورة إنسان بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان خُلق خليفة لله على الأرض ، وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية ، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن إن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أى منطق مقبول .

وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات للتوفيق لين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى نجد أن هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية » ...

ومع ذلك فإنه يبدو أن أصحاب الثالوث لا يؤمنون بالعقل ولا برسالات السماء ولا بأقوال الأنبياء ، وإنما أصروا على اعتقادهم رغم مناقضته لكل ذلك .(٢)

بهذا المنهج الغامض والتبعية التى تسلب الإنسان أسمى نعمة أنعمها الله عليه وبها كُرم – نعمة العقل – وبهذا الإيمان بالمتناقضات التى تصيب التفكير أبلغ مصيبة سار دعاة التثليث وحاملوا لواءه – محاولين بكل ما

(١) الله واحد أم ثالوث ص ٧٠

(٢) انظر الله واحد أم ثالوث .. باختصار

أوتوا حمل الناس على إلغاء عقولهم وشل تفكيرهم ليؤمنوا بهذه العقيدة الثالوثية إيمانا أعمى بلا تفكير ولا إقتناع . منقادين كانقياد البهائم خلف راعيها ..

معجزات المسيح لا تجعله إلها :

المعجزات التى جاء بها المسيح – عليه السلام – ليست من صفات الإله بل وقعت بإذن الله تبارك وتعالى ، وعيسى عليه السلام ما هو إلا عبد أنعم الله عليه وجعله مثلا لبنى إسرائيل .

لقد كانت معجزات نبى الله عيسى – عليه السلام – مناسبة لما نبغ فيه القوم .. لذلك لم يكن عجيبا أن يرسل الله رسولا إلى بنى إسرائيل يتفوق عليهم بمعجزات طبية لأنهم نابغون فى الطب ، وهم أدرى الناس به وأقدر الناس على فهمه ، ولو لم يكونوا كذلك ما فهموا معجزة عيسى ولا آمنوا به ، ولا كانت لها أى واقع أو صدى لديهم ..

ومعجزات عيسى عليه السلام ذكر القرآن الكريم منها أربعة فى سورة المائد" والخامسة ذكرت فى سورة آل عمران .

والأنواع الأربعة الذين ذكرهم الله فى سورة المائدة هى :

١ – إن يصور من الطين كهيئة الطير ، فيكون طيرا بإذن الله . وهنا نلاحظ أن الخلق من الله ولكنه جرى على يد عيسى – عليه السلام –

٢ – إحياؤه الموتى بإذن الله تعالى جلت قدرته ، والمحيى هو الله تعالى

وأجرى الله الإحياء على يد عيسى عليه السلام برهانا على صدق رسالته.

٣ – إبراؤه الأكمه والأبرص – بإذن الله – وهذان المرضان لم يقدر الطب القديم ولا الحديث على إبرائهما ، ولكن عيسى عليه السلام شفاهما بقدرة الله تعالى وإذنه .

٤ – إنزال المائدة بطلب الحواريين لتطمئن قلوبهم ، وليعلموا صدقه .

٥ – المعجزة الخامسة انفردت بها سورة آل عمران . وهى إخباره – عليه السلام – بأمور غائبة عن حسه ولم يرها ، ولم يعاينها قط ، فقد كان يخبر أصحابه وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم .(١)

قال تعالى « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» (٢)

وصدق الله العظيم القائل «إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتُبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تُخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى بروسولى قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون . إذ قال الحواريون يا

(١) أضواء على النصرانية ص ٣١ ، ٣٢ باختصار

(٢) الآية ٤٩ سورة المائدة

عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين» (١)

وهذه المعجزات التى ذكرتها الآيات الكريمة شاهد صدق على وحدانية الله سبحانه وكمال قدرته وبديع صنعه فى خلقه .

عقيدة النصارى فى ميزان القرآن الكريم :

قضية التثليث اختلقها إفكاً وبُهتاناً فلاسفة النصارى فيما مضى من الزمان وناقش القرآن الكريم هؤلاء فى عقيدتهم الباطلة وأقام الحجة وبين المحجة على بطلان تلك المزاعم والفِرَىَ التى اختلقها القوم من عند أنفسهم ، وانسياقا وراء أهوائهم وضلالاتهم ..

ففى سورة البقرة يقول ربنا سبحانه وتعالى « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون» (٢)

والمعنى تنزه الله وتقدس عن أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء الجاهلون الظانون بالله غير الحق ، فإنه لا جنس له حتى يكون له ولد منه ، وعلى

(١) الآيات ١١٠ - ١١٥ سورة المائدة

(٢) الآية ١١٦ سورة البقرة

هذا فالولد الذى تنسبوه له تعالى ! ما أن يكون من العالم العلوى وهو السماء ، أو من العالم السفلى وهو الأرض ولا يصلح شئ منهما لمشابهته سبحانه ، لأن هذين العالمين وجميع ما فيهما مقهور لله تعالى خاضع لسلطانه «بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون» فكيف يكون فيهما أو فى أحدهما ما يجانسه .

وعبر «بما» فى قوله «بل له ما فى السموات والأرض» وهى لما لا يعقل ، ويجمع العقلاء فى قوله «قانتون» لأن المراد بتسخير السموات والأرض وما فيهما له سبحانه التسخير الطبيعى الذى لا يشترط فيه الاختبار ، لا التسخير الشرعى المعبر عنه بالتكليف الذى يفعله الكاسب باختياره ، ويستوى فى هذا التسخير الطبيعى العقلاء وغير العقلاء ، ولكنه فى غير العقلاء أظهر .

أما القنوت فإن لما كان بالعقلاء أليق غلب فيه ما يعقل على مالا يعقل ، وإن كان لغير العاقل قنوته الخاص به .

وجملة القول : أن الآية ناطقة بأن ما فى السموات والزرض ملك لله تعالى، ومسخر لإرادته ومشيئته ، لا فرق بين العاقل وغيره ، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذى يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة ، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التى تستعمل غالبا فى غير العاقل وهى كلمة «ما» لأن المعهود فى ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل ، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لأنه من

أعمالهم ، ومما يعهد منهم ويُسند إليهم لغة وعُرفاً ، وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه وأعدل البيان وأشرفه .. (١)

وأكد الحق سبحانه وتعالى الحكمين السابقين وهما تنزيهه عن اتخاذ الولد ، وملكيته لكل ما فى السموات والأرض وخضوع الكل لمشيئته وقدرته بقوله جل ذكره «بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (٢)

«أى منشئهما وموجودهما ومبدعهما على حدٍ ولا مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إيه قيل له مبدع» (٣)

وصدق الله العظيم حيث يقول «بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم » (٤)

فالله سبحانه مالك الملك مدبر الأمر .. فكيف يزعم النصارى بعد ذلك البيان أن عيسى ابن الله أو هو الله «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير» (٥)

ويعلن عيسى – عليه السلام – حقيقة دعوته الخالصة فى قول الله تبارك وتعالى «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أ أنت قلت للناس اتخذونى وأمى

(١) الشيخ رشيد رضا «تفسير المنار» ١ / ٣٦٠

(٢) الآية ١١٧ سورة البقرة

(٣) القرطبى الجامع لأحكام القرآن ١ / ٤٧٤

(٤) الآية ١٠١ سورة الأنعام

(٥) الآية ١٧ سورة المائدة

إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك إنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد » (١)

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى بن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له ، والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذّب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه – تعالى الله عما يقولون – فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ، ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له « أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك » أي تعاليت أن يكون معك شريك .. وإن كنت قلته فقد علمته» وهذا تأديب عظيم فى الخطاب والجواب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به حين أرسلتنى إليهم وأنزلت علىّ الكتاب الذى كان يتلى عليهم .

ثم فسر ما قال لهم بقوله «أن اعبدوا الله ربى وربكم» أى خالقى وخالقكم ورازقي ورازقكم (٢)

وهكذا يقرر القرآن الكريم دحض هذه الفرى الباطلة والمزاعم الكاذبة التى اخترعها النصارى من عند أنفسهم .. ويقرر حقيقة نبيه عيسى – عليه السلام – ودعوته .

(١) الآية ١١٦ – ١١٧ سورة المائدة

(٢) قصص الأنبياء ٢ / ٦٧٨

قال الله تعالى «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه عما يصفون» (١)

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد»(٢)

«وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى أسمه أحمد»(٣)

وهذا هو شأن عيسى .. يبينه القرآن الكريم ليعلن للضالين المضلين حقيقة هذا النبى الكريم . فقد أرشد الحق سبحانه إلى الدواء الناجح لما أصاب عقيدة هؤلاء من التزييف والتحريف فقال سبحانه «يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق» فالغلو فى شأن عيسى هو الذى دفع هؤلاء لما وقعوا فيه من الباطل .

« والذى أوقعهم فى هذه المهلكة الوخيمة ، والورطة الجسيمة ، ما ورد موهما من ألفاظ الإنجيل كالأب والابن فلم يحملوها على ما أريد منها ، وحملوها على ظاهرها فضلوا وأضلوا .

وأما ما ورد فى الإنجيل الموجود الآن من إطلاق ابن الله على عيسى – عليه السلام – فهو إن لم يكن مما حُرف يكون مجازا ، بمعنى ابن المحبة، كما يقال : فلان من أبناء الدنيا ، ونظير ذلك قول عيسى – عليه

---

(١) الآية ٩١ سورة المؤمنون (٢) سورة الإخلاص

(٣) الآية ٦ سورة الصف

السلام – لليهود حين أدعوا أن لهم أبا واحدا هو الله (لو كان أباكم لكنتم تحبوننى) ثم قال لهم (أنتم من أب هو أبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا) أدعت اليهود أن الله تعالى أبوهم أي أنهم مطيعون له ، ولا يخفى أن الابن والأب هنا مجازان ، وقد كثر إطلاق اسم الأب على الله تعالى ، واسم الابن على العبد الصالح فى الكتب السالفة ، فهو إما من الخبط فى الترجمة ، وإما مؤول بما ذكرنا فلا تغفل ، لكن قد مُنع من هذا الإطلاق فى الملة المحمدية بالكلية ، تحرزا من الإيهام والوقوع فى شرك الأوهام »(١)

ومن هنا كان الغلو فى الدين من الآفات المهلكة .. ولذا حذر الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – منه ، وحرص على وقاية المسلمين من تلك الآفة المدمرة .

فى صحيح البخارى يقول – صلوات الله وسلامه عليه – «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا عبد الله ورسوله»

وعن عبادة بن الصامت عن النبى – صلى الله عليه وسلم قال «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»

(١) تفسير القاسمى ٥ / ١٧٦٨

وفى رواية «من أبواب الجنة الثمانية أيها يشاء» (١)

والآية الكريمة «يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم» ينهى الله تعالى – فيها – أهل الكتاب عن الغلو والإطراء فى الدين ، وهو مجاوزة الحد ، فالنصارى لعنهم الله غلّوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد .

فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التى أحصنت فرجها .وسمى عيسى بها ، وهى الكلمة التى عنها خُلق وبسببها وجد كما قال تعالى «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب» (٢)

وقال تعالى « وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » (٣)

فأخبر الله تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله ، كل من الفريقين أدّعوا على الله شططا ، زعموا أنه له ولدا تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموا ولا فيما ائتفكوه، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم .

وذلك أن الفلاسفة . عليهم لعنة الله – زعموا أن العقل الأول صدر عن

(١) صحيح البخارى بدء الخلق ٢ / ٢٢٢ ومسلم ك الإيمان رقم ٤٦ .

(٢) الآية ٥٩ آل عمران .

(٣) الآية ٣٠ سورة التوبة .

واجب الوجود الذى يعبرون عنه بعلة العلل ، والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثانٍ ونفس وفلك ، ثم صور عن الثانى كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة والأفلاك إلى تسعة باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها .(١)

حكم الله على المغالين فى عيسى - عليه السلام -

قال الله تعالى «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح ابن مريم يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار» (٢) والمتأمل فى ذلك الحكم يجد أنه صدر بلا القسم الدالة على التأكيد ، وبقد الدالة على التحقيق ، إذاً فكفر أصحاب هذه العقيدة الفاسدة وحاملى ألويتها أمر مؤكد لا شك فيه ..

* وقصة المائدة أصدق دلالة على عبودية عيسى لله رب العالمين وتفرد الله سبحانه بالعبادة «ويدرك المتأمل أن أنصار عيسى يعرفون هذه الحقيقة والحواريون الذين طلبوا المائدة قدموا الأغراض الدنيوية حيث قالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم «نريد أن نأكل منها» وأخروا الأغراض الدينية «وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين»

وأما عيسى عليه السلام فقد قدم الأغراض الدينية حيث قال «اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك»

---

(١) ابن كثير قصص الأنبياء ٢ / ٦٧٢ ، ٦٧٤

(٢) الآية ٧٢ سورة المائدة

وأخر الأغراض الدنيوية «وارزقنا» ولم يقف عند هذا الغرض الدنيوى بل سرعان ما انتقل من الرزق إى الرازق «وأنت خير الرازقين»

فقوله «ربنا» ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى ، وقوله « أنزل علينا » انتقال من الذات إلى الصفات ، وقوله تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة ، لا من حيث إنها نعمة بل من حيث إنها صادرة عن المنعم ، وقوله وآية منك إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال ، وقوله وارزقنا إشارة إلى حصة النفس ، وكل ذلك نزول من حضرة الجلال فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلا إلى الأدنى فالأدنى ، ثم قال : وأنت خير الرازقين ، وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ، ومن غير الله إلى الله ومن الأخس إلى الأشرف .. وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها . اللهم اجعلنا من أهله» (١)

وتختم آياتُ نزول المائدة بقول الحق سبحانه «قال الله أني منزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحد من العالمين» (٢)

قضية الصلب لفداء البشرية

« لا تكاد تخلو عقيدة من العقائد الإساسية عند النصارى من إغراق فى الوهم ، وجموح فى الخيال ونزوع إلى المغالاة ، فعقيدة التثليث والصلب والفداء كلها عقائد تجافى العقل مجافاة صارخة ، وتتحداه تحديا سافرا،

(١) الرازى – التفسير الكبير ٢ / ٤٧١

(٢) الآيات ١١٢ – ١١٥ سورة المائدة

ومع ذلك تجد من يؤمن ويتعصب لها ، وهى لم تقم إلا على شبهات واهية لَبِسَ بها الشيطان على هذه الأمة ليفتنها عن دينها ويفسد عليها أمرها .. وعقيدة الصلب والفداء التى هى أساس دينهم ، فقد نفى القرآن أن يكون عندهم يقين بها ، وأنهم إنما اتبعوا فيها الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا قال تعالى «وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيز حكيما» (١)

وقد نسج الخيال المحموم لهذا الفداء قصة طويلة مليئة بالمتناقضات التى لا يقبلها عقل ، كقولهم إن آدم حين عصى الله بالأكل من الشجرة ووقع فى الخطيئة استحق هو وذريته العقوبة ، وظل الرب يفكر فى طريقة يجمع فيها بين رحمته وعدله ، لأنه عاقب آدم وذريته كان ذلك منافيا للرحمة ، وإن عفا عنهم كان ذلك منافيا لعدله ، وأخيرا اهتدى إلى الحل ، وهو أن يفدى البشر بنفسه فنزل فى بطن أنثى من خلقه وظل حبيسا به مدة الحمل ثم خرج وعاش دهرا طويلا بين الناس يأكل ويشرب ، ويلتذ ويلم ، ثم مكن أعداءه من نسفه ليقتلوه أشنع قتلة ، ويصلبوه على الخشبة ، وكل ذلك إنما تحمله من أجل أن يفدى آدم وذريته (٢) إنهم يدعون أن المسيح صلب لتخليص بنى آدم من ذنوبهم وخطاياهم .. هل يتفق هذا مع العدالة

(١) الآية ١٥٧ ، ١٥٨ سورة النساء

(٢) د . محمد خليل هراس «دعوة التوحيد» ص ٢٢٢ نقلا عن الجانب الإلهى للدكتور البهى ١ / ١٠٦

الإلهيـة والمنطق السليم ؟ ومـا ذنبـه حتى يصلب ليكون كفـارة عن ذنوب الخلائق ؟

وهل من العدل أن يؤخذ الإنسان بجريدة غيره ؟ والله تعالى يقول «ولا تزر وازرة وزر أخرى» «كل نفس بما كسبت رهينة»

جاء في تفسير المنار «أما النصارى فإنهم جعلوا خاتمة المسيح – عليه الصلاة و السلام – خاتمة شنيعة ، ومـأساة مروعة ، وجعلوا الاعتقاد بحصولها – على الوجه الذى صوروه – أصلا من أصول دينهم ، ودعامة من دعائم عقيدتهم لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها ، ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة دون الاعتقاد بصلب المسيح ، وقد تلمسوا لتلك العقيدة أصلا في « العهد القديم» وأسسوا عليه صلب المسيح وهى أن آدم قد عصى الله بالأكل من الشجرة التى نهاه عن الأكل منها فصار ، وصار جميع ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدى .. وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين فهم يحملون أوزارهم ووزر ذنب أبيهم .. إلخ هذه القصة التى أشرنا إليها»(١)

ونظرية الفداء هذه إنما هى فكرة بولس حيث يقول :

ويعيد الأب بولس الياس الخورى الحق إلى نصابه حينما يعلن في جرأة أن بولس هو مبتدع هذه الفكرة ، وقد حمل هو وتلميذه الحبيب لوقا لواء

(١) تفسير المنار ٦ / ٢٥ .

الدعاية لها .. ومما لا ريب فيه أن الفكرة الأساسية التى ملكت على بولس مشاعره فعبر عنها فى رسائله بأساليب مختلفة هى فكرة رفق الله بالبشر ، وهذا الرفق بهم هو ما حمله على إقالتهم من عثارهم ، فأرسل إليهم ابنه الوحيد ليفتديهم على الصليب وينتقل بهم من عهد الناموس الموسوى إلى عهد النعمة ، وهذه الفكـرة عينهـا هى التى هيمـنت على إنجيل لوقا .(١)

وقصـة الصلب المزعومـة بلا ذنب أو إثم تتنافى تمامـا مع مـا جـاء فى كتابهم المقدس فى سفر التثنية «وإذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة ، فلا تَبِتْ جثته على الخشبة ، بل تدفنه فى ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله ، فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب إلهك نصيبا» (٢)

إن حكاية العدل والرحمة والتوفيق بينهما التى يرددها النصارى لا معنى لها ولا مبرر ، فكل صاحب حق يملك أن يتجاوز عن حقه ويعفو ويرحم بغير أن يوجه إليه أى أحد أدنى ملامة لأن ذلك حقه ، وله أن يتصرف فيه أو يتنازل عنه .. والأمر فى حقيقته أزمة لا يستطيع النصارى لها جوابا ، وما ألطف ما قاله شاعر مسلم يتهكم عليهم :

عجبا للمسيح بين النصارى وإلى الله والـدا نسـبوه

---

(١) د. أحمد سلبى «المسيحية»

(٢) سفر التثنية إصحاح ٢١ فقرة ٢٢ ، ٢٣

أسلموه إلى اليهود وقالوا إنهم بعد ذلك صلبوه
فلئن كان ما تقولون حقا فاسألوا القوم أين كان أبوه
فإذا كان راضيا بأذاهم فاشكروهم لأنهم عذبوه
وإذا كان ساخطا غير راض فاعبدوهم لأنهم غلبوه

إن الفلسفة التي بنوا عليها مسألة العدل والرحمة لم تفلح في تحقيق العدل أوالرحمة ، وبدلا من وصف الله بهما ، تصف بضدهما – الظلم والقسوة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (١)

إن كتب القوم مليئة بالأغاليط والاختلاف فيما بينها حول قصة صلب المسيح ومن تلك الاختلافات ما يلي :

١ – حدد متى ومرقس المكان الذي جاء إليه المسيح وتلاميذه بقرية جشيماني وجعله لوقا جبل الزيتون وقاربه يوحنا حيث قال : إنهم جاءوا عبر وادي قدرون حيث كان بستان .

٢ – اتفق متى ومرقس على أنه أخذ معه بطرس وابني زبدي ، وخالفهم لوقا ويوحنا ، حيث ذكر الأول أنه انفصل عنهم مقدار رمية حجر ، وصار يصلي واسقط الثاني هذه العبارة من إنجيله .

٣ – ذكر متى أنهم قبضوا على يسوع ثم إن بطرس استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح برد سيفه إلى مكانه ، وقال

(١) أضواء على النصرانية ص ٦١

أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من أثني عشر جيشا من الملائكة .. وأما مرقس فقد وافقه في المعنى إلا هرب التلاميذ كلهم وزاد قوله : وتبعه شاب لابسا إزارا على عرية فأمسكه الشابان فترك الإزار وهرب عريانا وهو يريد بذلك الشاب يوحنا ذلك الغلام الذي كان يحبه المسيح . وأما لوقا فلم يذكر من ذلك سوى أن بطرس ضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح بأن يغمد سيفه، وانفرد عن الجميع بأن المسيح لمس أذنه وأبرأها ، وأما يوحنا فلم يرد شيئا بل نقص جملا وانفرد بذكر العبد الذي قطعت أذنه أن اسمه «ملخس»

٤ – أجمعت الأناجيل الثلاثة على أن الذين ذهبوا للقبض على يسوع هم الجند وخدام اليهود ، وانفرد لوقا وحده بأن رؤساء الكهنة كانوا قد ذهبوا للقبض عليه .

٥ – اتفق متى ومرقس ولوقا على أن الذين قبضوا على المسيح قد مضوا به إلى قيافا «رئيس الكهنة» وخالفهم يوحنا فذكر أن الذين أوثقوه قد ذهبوا به إلى «حنان» حما «قيافا»

٦ – اتفق متى ومرقس ولوقا على أن بطرس وحده هو الذي تبع اليسوع من بعيد إلى دار رئيس الكهنة ، وخالفهم يوحنا حيث ذكر أن الذي تبع المسيح إلى دار رئيس الكهنة هو بطرس ، والتلميذ الآخر يعني

نفسه»(١)

فأى إنجيل نصدق .. ولم تتفق كلمتهم حول القضية .. وكيف يستبيح هؤلاء لأنفسهم أن يصدقوا هذا التلفيق ؟

قصة الصلب فى القرآن الكريم ودفع عيسى عليه السلام

أشرنا إلى ما عليه القوم من تباين وتضاد فى قضية صلب المسيح عليه السلام – لكن القرآن الكريم يميط اللثام ويكشف الغطاء عن أبعاد تلك الحقيقة ، ويعلنا للناس واضحة كالشمس لا تعرو السحاب سماها ، فيقرر أن اليهود كفروا بعيسى ومن قبل رموا أمه الطاهرة العفيفة بالبهتان العظيم .. ويبين من جهة أخرى أن من اعتقدوا وقوع القتل والصلب على المسيح كانوا مخطئين فى معتقدهم ، يقول تعالى «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون»(٢)

وقال تعالى «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم

---

(١) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ٤٣٢ باختصار

وانظر الحقيقة بين المسيحية والإسلام ص ٢٤

(٢) سورة آ عمران ٥٤ ، ٥٥

رسول الله وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا » (١)

تنفى الآيات الكريمة نفيا قاطعا ما يدعيه هؤلاء الأفاكون من قولهم إفكا وبهتانا «إنا قتلنا المسيح ابن مريم» ويرد الحق على فراقهم « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم بل رفعه الله إليه»

لقد نجى الله رسوله عيسى – عليه السلام – من كيد أعدائه .. ورفعه وطهره من الذين كفروا «أخبر الله سبحانه وتعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به و خلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة ذلك الزمان »(٢)

روى ابن أبى حاتم .. عن سعيد ابن حبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله إن يرفع عيسى إلى السماء الخرج أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا منهم من الحواريين فخرج عليه من عين فى البيت ورأسه يقطر ماءً فقال : إن منكم من يكفر بى اثنى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، ثم قال : أيكم يُلقى عليه شَبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له : أجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ،

(١) الآيات ١٥٥ – ١٥٩ سورة النساء

(٢) هكذا ذكره ابن كثير ٢ / ٧١١ قصص الأنبياء

فقال : أنت هو ذاك ، فألقى عليه شَبه عيسى ورُفِعَ عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء .

قال :وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم ، أثنى عشرة مرة ، بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا – صلى الله عليه وسلم – قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» (١)

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ورواه النسائي وابن جرير (٢) وقال ابن جرير : عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت ، فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم : سحرتمونا لَتبرزنّ إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعا ، فقال عيسى لأصحابه : من يشتر منكم نفسه اليوم بالجنة ، فقال رجل : أنا فخرج إليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صوره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فمن ثَمّ شُبه وظنوا أنهم قد

(١) الآية ١٤ سورة الصف

(٢) ابن كثير ٢ / ٧١٤

قتلوا عيسى ، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك (١)

ودلالة السنة المطهرة قاطعة على نزول عيسى بن مريم – عليه السلام – وأنه من اشراط الساعة .. ونسوق طرفا من هذه الأحاديث المتعلقة بنزوله – صلى الله عليه وسلم – روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب . ويقتل الخنزير . ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » (٢)

وفى الصحيحن قال – عليه الصلاة والسلام – «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» (٣)

وفى رواية عند مسلم « والذى نفسى بيده ليهلن ابن مريم يفج الروحاء حاجا أو معتمرا أو ليتثنيهما » (٤)

ويز الحافظ ابن حجر حكمة ذلك بقوله :

الحكة فى نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود فى زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله تعالى كذبهم وأنه الذى يقتلهم ، أو نزوله لدنو أجله ليدفن فى الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت فى غيرها (٥)

---

(١) تفسير الطبرى ٦ / ١٢

(٢) البخارى ٤ / ٤١٤ ومسلم ١ / ١٣٥

(٣) البخارى ٦ / ٤٩١ ومسلم ١ / ١٣٦

(٤) مسلم ٢ / ٩١٥ وأحمد فى المسند ٢ / ٥١٣

(٥) فتح البارى ٦ / ٤٩٣

وفى صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال اطلع النبى – صلى الله عليه وسلم – علينا ونحن نتذاكر فقال : ما تذاكرون . قاولا : نذكر الساعة . قال : «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات . فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم – صلى الله عليه وسلم – ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تحرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » (١)

وعن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال «الأنبياء إخوة لعلات ودينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأن لم يكن بينى وبينه نبى ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع إلى الحُمرة والبياض ، سَبْط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلَلٌ بين مُمصَّرتين (٢) فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويعطِّل المِلَل حتى تهلك فى زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيخ الدجال الكذاب ، وتقع الأَمَنةُ فى الأرض ، حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضا ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يُتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه» (٣)

(١) مسلم ك الفتن وأشراط الساعة ٤ وأبو داود ٤ / ٤٩٩

(٢) الممصر المصبوغ بالحمرة والمراد أنه يرتدي ثوبين مصبوغين

(٣) المسند ٢ / ٤٣٧

فعيسى - عليه السلام - رفعه الله ولم ينله من المتربصين به أذى وإنه سينزل ويحكم بشريعة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - كما صرح بذلك الرسول الكريم فيما أسلفنا من أحاديث صحاح .

ونجاته ورفعه من أصدق الدلائل على قدرة الله الذى لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء . وشاهد صدق على وحدانيته .. فالذى خلقه بلا أب وأظهر لأمه دلائل قدرته وبديع صنعه رفعه إلى محل كرامته وسينزله متى شاء حكما عدلا ..

دعوة التوحيد في العهدين القديم والجديد
(التوارة والإنجيل)

أدلة التوحيد كثيرة في التوارة والإنجيل ونسوق طرفا من هذه الأدلة على سبيل المثال لا الحصر .. ليعرف اليهود والنصارى أن التوحيد هو دين الله الحق

١ – في سفر التثنية ص ٦ عدد ٤ – ٥ قوله :

«اسمع يا إسرائيل الرب الهنا رب واحد ، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك»

٢ – في سفر التثنية – أيضا – ص ٦ عدد ١٣ – ١٥ قوله

«الرب إلهك تتقى وإياه تعبد و باسمه تحلف ، لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم ، لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم ، لئلا يحمى غضب الرب إلهكم عليكم فيبدكم عن وجه الأرض»

٣ – في سفر أشعيا ص ٤٤ عدد ٦ قوله عن الله «أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى»

٤ – وفيه أيضا ص ٤٥ عدد ٥ – ٧ قوله :

«أنا الرب وليس من آخر ، لا إله سواى نطقتك بزنّار وأنت لم تعرفنى ، لكى يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها إنه ليس غيرى ، أنا الرب وليس من رب آخر مبدع النور وخالق الظلمة صانع السلام .. أنا الرب صانع كل هذه»

وكذلك الأدلة كثيرة في الأناجيل المتداولة وحسبنا منها ما يلى :

١ – جاء فى إنجيل متى ص ١٩ عدد ١٦ ، ١٧ عن شخص تقدم للمسيح يسأله :

«وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية؟ فقال له لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد – وهو الله»

٢ – فى إنجيل يوحنا ص ١٧ عدد ٣ قوله عن المسيح :

«وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته»

٣ – فى رسالة يعقوب ص ٢ عدد ١٩ قوله «أنت تؤمن أن الله واحد حسنا تفعل»

٤ – قال بولس فى رسالته إلى تيموثاوس ص ٦ عدد ١٥ ، ١٦ قوله :

«الذى سيبينه فى أوقاته المابرك العزيز الوحيد ملك الملوك ، ورب الأرباب الذى وحده عدم الموت ، ساكنا فى نور لا يُدْنى منه ، الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه ، الذى له الكرامة والقدرة الأبدية – آمين»

ومن الحقائق المؤكدة الثابتة أن المسيح – عليه السلام – لم يدع أبدا لعبادة نفسه فى انجيل متي ص ٥ عدد ١٧ قال :

«لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل»

وفى سفر التثنية ص ١٣ عدد ١ – ٥ ما نصه :

«الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الربإلهكم ساكن قلوبكم ومن كل أنفسكم ، وراء الرب إلهكم تسهرون ، وإياه تتقون ، ووصاياه تحفظون، وصوته تسمعون ، وإياه تعبدون ، وبه تلتصقون»

فالتوحيد إذن دعوة الأنبياء جميعا منذ نوح – علية السلام – إلى أن أكمل الله الدين وأتم النعمة برسالة النبى الخاتم سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –

يقول سبحانه حكاية عن نوح – عليه السلام – «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم» (١)

وفى حق هود علية السلام «وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون» (٢)

وفى حق شعيب – علية السلام – «وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (٣)

وفى حق المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – يقول سبحانه «ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد » (٤)

(١) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ سورة هود
(٢) الآية ٥٠ سورة هود
(٣) الآية ٣٦ سورة العنكبوت
(٤) الآية ١١٧ سورة المائدة

وفى حق خاتم الأنبياء - صلوات الله وعظيم تسليماته عليه - يقول سبحانه «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ» (١)

وصدق الله العظيم «وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» (٢)

فالتوحيد دعوة الأنبياء جميعا حق لا شك فيه .. والتثليث باطل لا ريب فيه واليهود لم يتقتلوا عيسى عليه السلام ولم يصلبوه ولكن شبه لهم ورفعه الله إليه .. وأعلن - عليه السلام - عبوديته لله منذ نزل من بطن أمه .

«قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا» (٣)

«لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن بعادته ويستكبر فيحشرهم إليه جميعا» (٤)

وهكذا تظهر دلائل التوحيد واضحة جلية فى قصة نبى الله عيسى - عليه السلام - مذ حملت به أمه على غير العادة وحتى رفعه

فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟؟

مواضع قصة عيسى عليه السلام فى القرآن الكريم

١ - سورة آل عمران الآيات ٤٥ - ٦٤

٢ - سورة النساء الآيات ١٥٥ - ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٢

(١) الآية ١٦٢ - ١٦٤ سورة الأنعام
(٢) الآية ٢٥ سورة الأنبياء
(٣) الآية ٣ سورة مريم
(٤) الآية ١٧٢ سورة النساء

٣ – سورة المائدة الآيات ١٧ ، ٤٦ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١١٠ – ١٢٠

٤ – سورة مريم الآيات ١٦ – ٣٧

٥ – سورة التوبة الآيات ٣٠ – ٣١

٦ – سورة الصف الآية ٦

٧ – سورة التحريم الآية ١٢